

الدُّعَاةُ

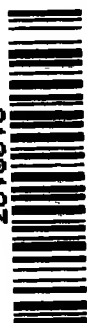
لـمؤلفه

عباس محمود العقاد ابراهيم عبدالقادر المازني

الطبعة الرابعة



Bibliotheca Alexandrina



0109123



التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

قطاع النشر

رئيس مجلس الإدارة

مهندس / (أحمد محمد شعراوي)

رئيس قطاع النشر والتوزيع

سعاد فريد

عبد الرحمن بن عبد الله

٢٠٨١ ٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة .

ت : ٣٥٥١٥٩٩

ت : ٣٥٥١٨١٠ / ٣٥٥١٨١٨ / ٨٠٠

مخمس : ٣٥٤٤٨١١ - ص ب ١٤ رقم بريدي ١١٥١٦

الدُّعَاةُ

(في الأدب والنقد)

لمؤلفيه

عباس محمود العقاد إبراهيم عبد القادر المازني

الطبعة الرابعة

مقدمة

بسم الله نبتدىء (وبعد) فان كان للسكوت عن الخوض في احاديث الادب داع فقد زال ذلك الداعي اليوم ، وقد تجددت دواعي الكتابة في اصوله وفنونه ، اخصها الامل في تقدمه ، لالتفات الأذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس لاجتراء الادعياء والفضوليين عليه ، وتسلسل الأقلام المغرورة والمآرب المتهمة الى حظيرة . وكتابتنا هذا مقصود به مجازاة ذلك الامل وتوفى تلك العلل . وهو كتاب يتم في عشرة اجزاء (١) . موضوعه الادب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المذهب في بضع السنوات الاخيرة وراوا بعض آثاره وتهيات الأذهان الفتية التهنئة لفهمه والتسليم بالعيوب التي تؤخذ على شعراء الجيل الماضي وكتابته ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب في اجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبدوءا ونرجو أن نكون فيه موفقين الى الافادة

(١) لم يظهر من الديوان في النقد والادب الا جزءان طبع اولهما في يناير ولانبيها في فبراير سنة ١٩٢١ واعيد طبعهما بعد شهرين

مسعدين الى الغاية . واوجز ما نصف به عملنا - ان افلحنا فيه -
 انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط
 بينهما ، واقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصرى
 عربى : انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من
 تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية اخرى ثمرة لقاح القرائح
 الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة .
 ومصرى لان دعائه مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لان
 لغته العربية ، فهو بهذه المثابة اتم نهضة ادبية ظهرت في لغة العرب
 منذ وجدت ، اذ لم يكن ادبنا الموروث في اعم مظاهره الا عربيا
 بحثا يدبر بصره الى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى ان تحطم كل عقيدة
 اصناما عبت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحا اوجب وايسر
 من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه في جميع حالاته ، فلهذا
 اخترنا ان نقدم تحطيم الاصنام الباقية على تفصيل المبادئ
 الحديثة ، ووقفنا الاجزاء الاولى على هذا الغرض ، وسنردفها
 بنماذج للادب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالسبار وكالميزان
 لاقاربها . فان اصبنا الهدف والا فلا اسف . وحسبنا بهذه
 المقدمة الوجيزة بيانا .

شوقي في الميزان (توطئة)

كما نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضججات في البلد ، لا استرخاما لشهرته ولا لمنعة في أدبه عن النقد ، فان أدب شوقي وورصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه في اعتقادنا أهون الهينات . ولكن تعففا من شهرة يزحف إليها زحف الكسبيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضمن الشحيح ، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها طي الضريح ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين اذا ازدروا شيئا لسبب يفتنهم لم يبالوا أن يطبق الملا الأعلى والملا الأسفل على تبجيله والتنويه به فلا يعنيانا من شوقي وضجته أن يكون لهما في كل يوم رفة ، وعلى كل باب وقفة . وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وغدا لولا أن الحرص المقيت أو الوجل على شهرته المصطنعة تصرف به تصرفا يستثير الحاسة الأخلاقية من كل انسان وذهب به مذهبها يعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب أن لا فرق بين الاعلان عن سلعة في السوق والارتقاء الى أعلى مقاوم السمعة الأدبية واهيئة الفكرية ، وكأنه يمتد اعتقاد اليقين أن الرفة كل الرفة والسمعة حق السمعة أن يشتري السنة السفهاء ويكم أفواههم ، فاذا استطاع أن يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول

والزبور في مناسبة وغير مناسبة وبحق أو غير حق فقد تبوا مقعد
المجد وتسبم ذروة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضمائر ،
وسحقا للمقدرة والانصاف وبعدا للحقائق والظنون ، وتبا للخجل
والحياء ، فان المجد سلعة تفتنى ولديه الثمن في الخزانة ، وهل
للناس عقول ؟ ؟

ومن كان في ريب من ذلك فليتحققه في تتابع المدح لشوقي ممن
لا يمدح الناس الا مانجورا . فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك
الخرق المنتنة نعتى بها بعض الصحف الاسبوعية . وعرف من لم
يعرف انها ما خلقت الا لثلب الاعراض والتسول بالمدح والدم وان
ليس للحشرات الادمية التى تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء
وذوى المآرب والحرايات . خبز مسعوم تستمرته تلك الجيف التى
تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الارض . في بلد
لو لم يكن فيه من هو شر منهم ل ماتوا جوعا او تواروا عن الميون .
هذه الصحف الاسبوعية وهذا شأنها وتلك أرزاق اصحابها تكيل
المدح جزافا لشوقي في كل عدد من أعدادها ، وهى لا تنتظر حتى
يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، او اثر يذكر ، بل تجهد نفسها في تحمل
الاسباب واقتسار الفرص . فان ظهرت له قصيدة جديدة والا
فالقصاصد القديمة المنسية في بطون الصحف ، وان لم يكن شعر
حديث ولا قديم فالكرم والاربية والفضل واللوزية ، وان ضاقت
ابواب الدعاء والاطراء فقصيدة او كلمة ينشرها شاعر آخر فيستطل
عليه بالشم ويمير بالتقصير عن قدر شوقي والتخلف عن شأوه .
وهكذا حتى برح الخلفاء وانتهكت الدسياسة . والمعجب ان يتكرر
هذا يوما بعد يوم ويبقى في غمار الناس من يحتاج الى ان يفهم كيف
يحتال شوقي وزممرته على شهرتهم ومن اى ربح نفخت هذه
الطبول .

وشرفاء الناس كافة يتبرأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة
ويعلمون انها آفة واى آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقييمها

وتقعدها لثمة ، وبقاؤها على المجتمع المصرى وصمة ، الا شوقى .
فانه يعتدها آلة شرف وأحدثة حسنة فهو يغمس نفسه فى
تقريبها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى ان ينصب عجاجات من
أوباشها للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية فى مثل ثروته بصر به
يمد يده بالسلام الخفى لأولئك الأوباش فى خلوة من خلواته لراها
نقيصة يخزى لها ويود ان تكتم عليه . ونقول فى مثل ثروته اكتفاء
بعمرة العرف ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية
وشمم افذاذ العبقريه . فاما ان تكرم البطالة كما تكرم جلائل
الأعمال ، وان يدعى الناس الى المحافل لحمد التسول كما يدعون
لحمد الاحسان والمروءة وان يتنادى الى الاحتفاء بناهشى الاعراض
كما يحتفى بمهذبى الأرواح وهداة العقول ، وان يؤيد نفاية المجتمع
وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وافراد العصور ، فلك الهاوية التى
لا يبدى قرارها ... ووا خجلة مصر !! من الذى يصنع ذلك فيها ؟؟
شعراؤها - الشعراء فى كل مصر عشاق المثل الأعلى وطلاب الكمال
الاسمى لا يرضون بما دون غاية الفانيات مطمحا لعجائبهم
وقبله لتزكيتهم . ونحن هنا يركى شعراؤنا من يعد رفق اسجانيين
بهم ضعفا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ، واتساع المجتمع لهم رزعا
... الا انه والله للعار وشر من العار . ولقد استخف شوقى
بجمهوره واستخف واستخف حتى لا مزيد . ما كفاه ان يسخر
الصحف سرا لسوقه اليه واختلاب حواسه واختلاس ثقتيه حتى
يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدى بيده اجرة
سوقه واختلاسه . واقسم لو فعلها رجل فى أوربا لما قدر ان يمكث
معه اسبوعا واحدا فى بيئة محترمة ولئن لم يعرف شوقى مقبته
أدبا ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ليكونن بلدنا هذا بلدا يجوز فيه كل شيء ولا يؤنف فيه من شيء ،
ولا يصد المرء ان يخلع فيه عاريا الا اتقاء طوارئ الجو وعوارض
الحر والبرد . اما الحياء فلا ولا كرامة .

ان امرءا تبلغ به مخنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندرى
 هم يستنكف في سبيل بغيته واى باب لا يطرقه تقريبا الى طلبته .
 والحقيقة ان تهالك شوقى على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ورد به
 كل مورد واذله عما ليس يذهل عنه بصير اريب ، وليس المجال
 منفسحا للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر
 هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . اما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم .
 نقول ان تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق وقد وجد في مركز
 امكنه من قضاء هذه اللبانة اذ كان اشبه بملحق ادبى في بلاط امير
 مصر السابق وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه بأصحاب المؤيد واللواء
 والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط ، فكانت لا تبخل
 عليه بالتقريظ والتهيل وتتحاشى ان توسع صفحاتها لنقده كما
 توسعها لنقده غيره . وانت اذا قلبت الصحف القديمة رايت فيها
 مئات المقالات في نقد الادباء المشهورين كتابا كانوا او شعراء ولا ترى
 اسم شوقى عرضة لمثل ذلك من حملاتها . واستثنى مقالين او ثلاثا
 بدأ بها المولى شوقى في صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلسلتها ،
 وهذا ادعى الى الريبة ، وكان في امانة شوقى وموظفين آخرين
 بالبلاط هبات محبوسة على أقلام الكتاب والادباء فكان شوقى
 يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بالادب
 ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه في الصحف ويلغظوا في
 المجالس بتفضيله وتقديمه . ولو شئنا لسردنا أسماءهم واحدا
 واحدا واكثرهم احياء يرزقون . أضف الى هؤلاء من يمدحونه
 لمشاركتهم اياه في العادات الخصوصية والمناذات الليلية ، وهم غير
 قليل ، ومن اعتادوا ان يرتبوا المواهب على حسب الوظائف
 والاقاب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشعراء فيقول لك :
 اولهم محمود سامى باشا البارودى (لانه باشا عتيق) وثانيهم
 اسماعيل صبرى باشا (لانه أحدث عهدا بالباشوية والوزارة)
 وثالثهم أحمد شوقى بك (لانه بك متميز) ورابعهم حافظ بك

أبراهيم (لأنه أحرز الرتبة أخيراً) وبلى ذلك خليل أفندي مطران
(لأنه حامل نيشان) فطائفة الأفندية والمشائخ وهلم جرا كانما
يرتبونهم في ديوان التشریفات لا في ديوان الآداب !!! فبدلك وما
شاكله اعتاد الناس أن يسموا اسم شوقي مشغوعاً بأفخم الألقاب
غارقاً في صيغ الأطناب والاعجاب . وكأنه يخشى أن ينسى الجمهور
اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه إلا أن تكرر تلك الصيغ في كل
مرة يذكر فيها اسمه . ففي كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب
وشاعر العرب والعجم وأمير الشعراء وسيد الأدباء ، ولبت شعري
ما ضرورة هذا التكرار كله أن كان مفهوماً بذاته ؟؟ ولما رسخت
هذه الألقاب المأجورة صدقها العامة وأشباه العامة ومن يجاملون
السمعة والوجاهة فتناقلوها ورددوها - ولم لا يصدقونها ويرددونها
وأكثرهم لا يعنى من الأدب بكثير ولا قليل ، وجلهم إنما يعرفه
بالسمع ويلقنه بالاشاعة ؟؟ فان كان في الأمر موضع للعجب فهو
أن نسمع ثناء متكرراً ولا نسمع نقداً - مع أن الإغراق في الثناء
أحجى أن يغوى بالمنافسة ويكثر من النقد . ومتى علمت علة
السكوت فقد زال موضع العجب .

واظن السن قد فعلت فعلها في نفس هذا المقلب بعرض الصيت
فغلبه الشك وزاده شحاً وقلقاً فأصبح لا يقنعه أن يعلل بالدهان ،
ويؤكد له التفرد والرجحان ، حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على
الخلق قاطبة ، فلا يروى لأحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادي
باسم ، ولا تقرن إلى شهرته شهرة . والا فعقوبة من يرتكب جريمة
الاجادة معروفة !! وما أطول عذابه أن لج به هذا الوسواس !! وأن
المحنة لتستدر الرحمة ولكن أرحم الناس خليف أن يفحك ممن
يخال أنه يعقم بطن الطبيعة ويسد الأذان ويضيق رحب الفضاء
بالاجرة .

ولو شئنا لانتخذنا من كلف شوقي بتواتر المدح دليلاً على جهله
بأطوار النفوس فان الأذان أشد ما تكون استمداً لقبول الدم اذا

شبت من الملح وأسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النغمة . واذا تعود الناس ان يسموا ضربا واحدا من الكلام عن اسنان ناقوا الى سماع كلام عنه من ضرب آخر . ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة واكبر ذنبه عندها انها افترطت في محاباته ، فهل يدري شوقي انه يؤجر اذنا به على النيل منه حين يبذل الأجر على المبالغة في مدحه ؟؟ انه لا يدري ولا يرى المريض أن يدري بدائه .

وعلى نفسها جنت براقش ، فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقي ومن على شاكلته عجز حياتهم ووهن اسلحتهم ونضطرمهم الى العدول عن أساليبهم المستهجنة بأسا من صلاحها في هذه الايام . اذ يعلمون انها لا تعصم من النقد الصحيح ولا تموه على الناس افئادهم الا ريشما تنكشف أسرارهم . وتقول لشوقي ان سنة الله لم تجر بأن يقوض الغابر والمستقبل ، ولكنها قد تجرى بأن يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فان كان يكره ان يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ولا يشتفى الا بأن يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا ابرد عليها وغرة قیظها . وانه ليلد لنا ان تكون نحن حربه وبلاءه وان نستطيع الادالة للحق من الباطل في غرض من الأغراض فانها لذة نادرة في هذا العالم .

وانه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فان ابلغ ما يكون العيب اذا كان فاشيا ، وأضر ما يكون اذا كان متخذاً نموذجاً للاحسان وقياساً للاتقان . وليس قصارى الأمر ان يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن انها قصيدة رديئة فان اللوح والتميز اذا اختلا لم يكن اختلاهما في الادب وحده . وانت اذا استطعت ان تهدي الطبقة المتأدبة من امة الى القياس الصحيح في تقدير الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح في كل شيء ومنحتهم ما لا مزيد لمانح عليه . وان الامم تختلف ما تختلف في

الرقى والصلاحية ثم يرجع اختلافها اجمعه الى فرق واحد: هو الفرق فى الحالة النفسية أو بالحرى الفرق فى الشعور وفى صحة تمييز صميمه من زيفه اذا عرض عليها فكرا وقولا أو صناعة وعملا .

فليس اصلاح نماذج الاداب بالأمر المحدود أو القاصر على القشور ولكنه من اعم أنواع الاصلاح واعمقها . وسنتناول شعر شوقى قصيدة قصيدة أو معنى معنى حتى نتبين الأثر جليا فى تحول الآراء وسلامة القياس ، وسيرى للقراء اننا نغلف له البلاغ ونصحه صخا شديدا . وكذلك ينبغى أن يجزى الزيف والدسياسة والاستخفاف بالمقول والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الافواه وتسخير المأجورين . على اننا لا نحتاج أن نقول أن ذلك ليس بما نعنا اعتزام الحق والتزام الصواب ، وفى غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداواة على القارىء ليقتنع بما نقول فاننا لا نسال احدا اقتناعه . ومن كان يحتكم براهه الى غير الحجة القاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه فما تعودنا أن نوجه لمثله كلاما . وانا لبادئون : -

رثاء فريد

أصاب شوقي حين قال أن قصيدته في رثاء فريد من خيرة قصائده . فأنها في مستوى أحسن شعره الأول والآخر ، وهي صورة جامعة لأسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لهدف لها المخلصون من المعجبين به والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حجراً في بناء شهرته ، لأنها من نوع ذلك الشعر الذي كان يشتهر به الشاعر في تلك الفترة ، وفيها مزاياه ومحاسنه التي لم يكن للشعر مزاياء ومحاسن غيرها . فقد كان العهد الماضي عهد ركافة في الأسلوب وتعثر في الصياغة تنبوه الأذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر أن يوفق الى جملة مستوية النسق أو بيت سائغ الجرس فيسير مسير الأمثال وتستعذبه الأفواه لسهولة مجراه على اللسان . وكان سبك الحروف ورصف الكلمات وهرونة اللفظ أصعب ما يعانيه أدباء ذلك العهد لنُدرة الأساليب ووعورة التعبير باللغة المقبولة - فاذا قيل أن هذه القصيدة يتلوها القارئ « كالماء الجاري » فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . وإذا اشتهر شاعر بالأجادة فليس للأجادة عندهم معنى غير القدرة على « الكلام النحوي الحلو » وهذه هي قدرة شوقي التي مارسها واحتال عليها بطول المران والتي هي مزية قصيدته في رثاء فريد وفي أحسن قصائده .

مضى الجيل الفائت وجاء جيل بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة والرسائل الرصينة وأخرجت المطابع مئات الكتب التي

صاغها أقدر كتاب العرب وشعرائهم وانتشرت الصحف فأصبح من مألوفات العامة ترديد جملها « النحوية الحلوة » وترجمت الأسفار الأفرنجية أو اطلع عليها الناشئة في لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ ومعنى الاقتدار الفنى أو الأدبى . وسهلت الأساليب لكثرة ما وردت على الأسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال فتعود القارئ أن يبحث عن المعنى بل لا يكفى الفارئ المطلع أن يجد المعنى حتى يبحث عن وجهته ومحصله . فمزيه شوقى عند هذا الجبل الناشئ من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المألوف لنبعث عما وراءها .

ولهذا طفق يلقي اليهم الفصيذة بعد القصيدة ولا يسمع لها رنة ذلك الصدى ، وطفق اذكاء القراء يمرون بشعره الأخير قصيدة في ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره ، اغترابا بما كانوا سمعوه من الصيت الضخم واللقب الفخم ، ويتساءلون : « ماذا أصاب شوقى » ؟؟ ويغالط قراؤه الأقدمون أنفسهم فيخيل اليهم أنهم كانوا يسمعون منه خيرا من هذا الشعر ، وقد يعززون الاختلاف الى كلال التسيخوخة وفتور المزاج ولو كلفوا أنفسهم مؤنة المقارنة بين قديمه الذى يعجبون به على الذكرى ، وحديثه الذى يغضبون أنفسهم على استحسانه فلا يقدرون - لعرفوا موضع وهمهم ولعلموا أن شوقى الأمس هو شوقى اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

نعم تغير جلة القراء فأصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب في ذلك ولا في بقائهم على احلال شوقى محله الأول مع انحذار شعره في نظرهم . فانهم يرون منزلة شوقى بالعادة التى لم تتغير منذ قدروه للمرة الاولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذى نما وترقى واتسع اطلاعه . وقد جسد شوقى في مكانه لانه جعل اطراء الناس غايته فلما بلغها لم يحس في نفسه نشاطا للنمو . ثم لا تنس أن القارئ يرتقى في الاختيار أضعاف ما يرتقى الشاعر في الأداء والابتكار . وقلما يرتقى الشاعر بعد الأربعين فان أخصب أيام

الشعر أيام الشباب . وإذا ارتقى فانما يكون ذلك باحثاث الطبع
وإدمان الإطلاع والتزبد من المعرفة وشوقى لم يجد من نفسه ولا من
الناس داعيا الى ابتغاء المزيد وقد علم أصحابه أن زاده من القراءة
لا يتعدى كتب القصص والنوادر .

وقد أحس شوقى بالتغير من حوله فأده أن يستدركه وأعيته
الزيادة فى سن التقهر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزداد ترويح
السلعة كلما خيف عليها الكساد . ولما سئل عن غرضه من قصيدته
فى فريد وقرىء له فى نقدها مالا يحب بهت على ما سمعت وقال :
تلك قصيدة أردت بها الكلام فى فلسفة الموت . . .

فلننظر اذن فلسفة الموت التى استنبطتها حكمة شوقى :

تعود إليها القارئ الى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم
تسمعه من أفواه المكدين والشحاذين الا كل ما هو أخس من بضاعتهم
وأبحس من فلسفتهم - كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان
والمكايكز اذ ينادون فى الأزقة والسبل : « دنيا غرور كله فان ،
الذى عند الله باق ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئا
التقاء » الخ . . . الخ .

تلك اقوال الشحاذين وهذه اقوال (امير) الشعراء .

كل حى على المنية غاد تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الاولون قرنا فقرنا لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم غير باقى مآثر وأبداى
الخ . . . الخ .

وما خلا هذه العظات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار
ونزع فيه الى الاستقلال بالرأى فمعناه أخط من ذلك معدنا وأقل
طائلا وأفضل مضمونا . والجيد منه لا يبدو أن يكون من حقائق
التمرينات الابتدائية « كالزيب من العنب و $2 + 2 = 4$ » وهلم
جرا . وأكثره آفقه من هذه الطبقة فالتصيدة اما بيت حذفه وإثباته

سواء أو بيت حذفه افضل ، مثل اخباره بأن جر النعش في مركبة
أو حملة على الرقاب سواء .

لا وراء الجياد زينت جلالات منذ كانت ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذي ما احسب احدا يمر بقبر
فيذكره الا انقلب الاعتبار والهيئة في نفسه هزواً وعبثاً . وذلك
حيث يقول :

كل قبر من جانب القفر يبدو علم الحق أو منار المعاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر في جغرافية شوقي الأخرية :
« انه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموتى الى طريق
الآخرة لئلا يضل احدهم النهج أو يصطدم بصخرة في دروب
الموت !! » ومثل تحذيره الناس من تربص الأجل بهم ايقاظاً ونياماً
كانما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهودة .

وعلى نائم وسهران فيها أجل لا ينام بالمرصاد

ومثل تبئسه من رجعة الموت الى اهله وتخطته الذين بزعمون
غير هذا الزعم يقول ذلك بلهجة العارف لما يجله غيره كأنها مسألة
خلافية طال فيها الجدل وانشطرت عليها احزاب الفلسفة ولم يفرغ
الناس يوماً من بحثها وتقليب وجوها والتنقيب عن اسانيدها
وشواهداها حتى جاء شوقي ففض الخلاف ببتيته هذين .

سر مع العمر حيث شئت تؤين

واقعد العمر لا تؤب من رقاد

ذلك الحق لا الذي زعموه

في قديم من الحديث معاد

ولا غرو فقد كان اهل الميت اذا مات في برلين أو لندن أو الهند
لا يزالون يترجون يوم اوبته ، ويمعدون ايام غربته ، وكان العلماء في

كل قطر وبلد يتساءلون امن مات غريباً عن دياره أيوب الى اهله
يوما ناضر الصفحة متهلل الجبين ممتعا بالعافية أو لا أيوب ؟؟ فكان
فريق منهم يقول « نعم » وفريق يقول « بل لا » الى أن جاء شوقي
فأفتى فتواه الجازمة وقال « بل لا أيوب » فانحسم الاشكال وقطعت
جهازه كل خطيب :

قال ناقد ادیب : ان الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه
قائل المثل العامي « اعطني عمرا وارمني في البحر » وانه كان أسوأ
منه تعبيرا وأقل ظرفا اذ يخاطب القارئ بقوله « أفقد العمر » وذلك
العامي يتلطف ان يجبه الناس بهذا الخطاب ونقول : ان توارد
الخواطر معروف مسلم به من جهة ، ومن جهة أخرى فان من
يتجشم لأجل الإنسانية أن يفوض على هذه المسائل العويصة ويسهر
الليالي في فض مفلقاتها وحل مشكلاتها لتحقيق بأن يتجاوز له الناس
من حسن المخاطبة ولا يكلفوه ان يابه لمثل هذه الهنات !!

ولنعد الى ما كنا فيه من نقل أبيات شوقي التي لم يرد في
فلسفة الشحاذين مثلها - فمن هذه الأبيات نأ عجيب فحواه أن في
العالمين نعشا واحدا تنقلهم أعواده من عهد عاد .

تستريح المطى يوما وهذى تنقل العالمين من عهد عاد

فان لم يكن يعنى هذا ويزعى ان الأمم لا تملك منذ وجدت غير
نعش واحد تنقل عليه موتاه فسبحان من يعلم مراده . والإ فان
كان يعنى ان هذه الخشبة التي ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى
وتجدد فأى شيء لا يمكن أن يقال فيه ذلك ؟؟ اية مطيئة لا تنقل
العالمين من عهد عاد كما ينقلهم النعش ، وما بال أى انسان لا يقول
اليوم أو بعد مائة جيل انه ركب مركبة فرعون ونام على سرير
قيصر ؟؟ ويقول :

كرة الأرض كم رمت صولجانا وطوت من ملاعب وجياد
شاعر عصرى ولا شك !! الا تراه يدين بكروية الأرض ؟؟ ولكننا

نخشى أن لا يكون شوقي قد ذكر الكرة إلا ليذكر بمدى الصولجان والملاعب والجياد ، بل نحن لا نخشى ذلك . نحن على يقين منه ، فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟؟ ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها . وانت اذا تقلت هذا البيت الى آية لغة لم يكن معناه إلا هكذا : « هذه الفبراء أسقطت من أيدي الملوك قضا كثيرة ودثرت ميادين لا عداد لها من ميادين السباق ، وأبادت خيلا لا تحصى » - فما أشبه الحكماء بالمفرورين ان كانت ثمرته كهذه تقع من نفس أحد موقع الحقيقة الخالدة .

ويقول :

تطلع الشمس حيث تطلع صباحا
وتنحى لمنجمل حصا
تلك حمراء في السماء وهذا
اعوج النصل من مراس الجلا

اليوم لا نخشى بفترة الأجل في كل حين !! فالشمس لا تخرج بدم قتلاها إلا حيث تطلع صباحا (أى حين تطلع حمراء وفي السماء . أما ان طلعت في الأرض فهذا شيء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصادا إلا في أيام الآلهة أو المحاق وفيما عدا هذه الأوقات لا قتل ولا حصا فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربي فلا تصدقوه فان موته باطل ...

الا أن شعرا يسف الى هذا الحال لجريرة لم يجنها على لغة العرب الأزل الصناعة لا جزى الله صانعيها خيرا . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا اليه همهم ولم يتوسلوا به الى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تبادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به كان الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكان الناس فقدوا قدرة الإحساس بها على ظواهرها . نظروا الى الهلال فاذا هو اعوج

معقوف فطلبوا له شيها ، وهو اغنى المنظورات عن الوصف الحسى ،
لانه لن يهرب يوما فنقتفى اثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه
وان كان لابد من التشبيه فلنشبه ما يبته فى نفوسنا من حنين أو
وحشة أو سكون أو ذكرى ، ففى هذا لا فى رؤية الشكل تختلف
النفوس باختلاف المواقف والخواطر . طلبوا ذلك الشبه فقال قوم
هو كالخلخال ثم راوا ان لابد للخلخال من ساق فقالوا هو فى ساق
زنجة الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فأحبوها وشببوا
بها الى آخر ما تتدهور اليه هذه الأوهام . وأفتن قوم فقالوا هو
كالمنجل ثم التمسوا له شيئا يحصده فقال ابن المعتز .

انظر الى حسن هلال بدا
يهتك من انواره الخندسا
كمنجل قد صيغ من فضة
يحصد من زهر اللجا نرجسا

فالهلال منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجوم
نرجس ، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله ؟؟ هل
فى هلر . وجاء شوقى فقال انه منجل يحصد الأعمار فإخطأ حتى
التشبيه الحسى لان الأعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل
فحسب ، وأما فى سائر الايام . فلا يكون القمر منجلا فى شكل ولا فى
حقيقة . فما المراد بكلامه ؟؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الأرض :

والقبار الذى على صفحتها دوران الرحى على الأجساد

وذلك من قول أبى العتاهية :

الناس فى غفلاتهم ورعى المنية تطحن

مثل لغناء الأعمار بالطحن ولا بأس بهذا التمثيل ، واقترضى
للطن رعى وجعل المنية الطاحنة فبلغ حدا لا يحتمل بعده
الاستطراد ، فمر على شوقى الا ان يكون لهذا الطحين غبار وان

يكون الطحين كله غبارا وأن يكون الغبار هو دوران الرحي . عند
هذا يركد العقل ويجم الكلام .
ولم افهم البيتين الاتيين بعد قوله : « تلك حمراء في السماء
.. الخ »

ليت شعري تعمدنا واصرا
أم اعاننا جنسية الميلاد ؟
كذب الأزهران ما الأمير الا
قدر رائج بما شاء غدا

يعنى الشمس والقمر . فما التعمد والأصرار وما اعانة جنسية
الميلاد وما الفرق بينهما ؟؟ أريد أن يطبق على الأزهرين المادة
القانونية : مادة القتل عن تعمد وسبق أصرار ؟؟ وفيه كذبا وكيف
يكون جريان الشمس والقمر في حيث أرسلتهما القدرة المحركة لهما
للقدر الراجح القادى ؟؟ وهل التعمد والأصرار واعانة الميلاد الا رواح
القدر وغدوه بما يشاء ؟؟ اسئلة لا جواب عليها ولا لوم في ذلك على
شاعر الانس والجن فلعل هذه من ابياته التى صنعها لاخواننا الجن
واختصهم بها دوننا .

ويقول في نعش فريد او حقيبة الموت كما سماه :

لو تركتم لها الزمام لجاءت

وحدها بالشهيد دار الرشاد

اما دار الرشاد فهى مصر كما ارادت القافية لا كما اراد شوقى
ولا كما اراد التاريخ والاثر . وإما معنى البيت فيقول شوقى ان
نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه الى مصر لسمى وحده الى مصر !!
فله ما أقدر رائى الشموس على احالة الجبل مضحكا والتقدس
ؤراية : نعش يسمى وحده فى البرور والبحار ويجوس خلال المدائن
والديار ، يمتدل وينعطف ، ويمضى ويقف ، حتى يستقر ملهما عند
قبره ، جادا لا يلوى على شئ قبل بلوغه ، والناس متحنون عن

طريقه ، تاركه يتهدى لطيته .. افمن هذه الصور ينتزع الشعر
مادة الرثاء والاجلال؟؟ الا ساء ما اصاب ذكرى الرجل من اجلال
شوقى . اراد ان يقول كما قال البحتري :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما

في وسعه لسعى اليك المنسبر

فكبا كبرة حاطمة .

ولقد طمح شوقى الى معارضة المعرى في قصيدة من غرر شعره
لم ينظم مثلها في لغة العرب ولا نذكر اننا اطلعنا في شعر العرب على
خير منها في موضوعها . والمعرى رجل تينم هذه الحياة محرابا
واجتواها غابا وصدف عنها سرايا - لايس منها خفايا اسرارها ،
واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع غواير آثارها ، وحواضر أطوارها ،
فاذا هو نظم في فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله
وتلك سبيله . واين شوقى من هذا المقام؟؟ انه رجل ارفع ما اتفق
له من فرح الحياة لذة يباشرها او تباشره وأعمق ما هبط الى نفسه
من آلامها اعراضة امير او كبير ، وما بمثل هذا ينظم الشاعر في
فلسفة الموت والحياة .

ولكى لا يسبق الى وهم شوقى اننا تكبر قصيدة المعرى تعصبا
للقديم واشارا للعرب على العجم تلقى اليه ها هنا درسا في الشعر
قد ينفعه .

فاعلم ، ايها الشاعر العظيم ، ان الشاعر من يشعر بجوهر
الأشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها والوانها . وان ليست مزية
الشاعر ان يقول لك عن الشيء ماذا يشبه وانما مزيته ان يقول
ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من
القصيد أن يتسابقوا في أشواط البصر والسمع وانما همهم أن
يتعاطفوا ويودع احسهم واطبعهم في نفس اخوانه زبدة ما رآه
وسمعه وخلاصة ما استطابه او كرهه . واذا كان كذلك من التشبيه
ان تذكر شيئا احمر ثم تذكر شيئين او اشياء مثله في الاحمرار فما

زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شيء واحد ،
 ولكن التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما
 انطبع في ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان
 فإن الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما
 تراها وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى
 نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى
 صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه
 مطربا مؤثرا وكانت النفوس توافقه إلى سماعه واستيعابه لأنه يزيد
 الحياة حياة كما تزيد المرأة النور نورا . فالمرأة تعكس على البصر
 ما يضيء عليها من الشيعاع فتضاعف سطوعه والشعر يعكس على
 الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجودا إن صح هذا التعبير ،
 ويزيد الوجدان احساسا بوجوده . وصفوة القول أن المحك الذي
 لا يخطيء في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره : فإن كان لا يرجع
 إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن
 كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود إليه المحسوسات
 كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر فذلك
 شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية . وهناك ما هو أحقر من
 شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائفة
 وما أخال غيره كلاما لشرف منه بكم الحيوان الأعجم .

فإن تبين لك ما نقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعرى
 التي اجتذرت على معارضتها .

نظر المعرى إلى سر الموت فلم يره في مظهره الضيق القريب ،
 حادثا متكررا تختم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة
 العميمة . رآه كما بدا منذ القدم لبداية الحكماء وأصحاب الأديان ،
 وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس وماني : حربا سرمدية قائمة
 بين قوتين خفيتين ميدانهما كل نفس حية وكل ذرة في طباق
 الأرضين وأجواز السماوات - هاتان القوتان هما الخير والشر أو

هما النور والظلام أو هما الحق والباطل أو هما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لا تغفل ، وأعاون لا تنى تقبل وتدبر ولا تتمهل . والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعت هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدنها اليوم وغدا ، ولتشهدنها الى ختام الزمان أن كان للزمان ختام .

نظر المعرى الى العالم الأرضي فلم يكن سرير محتضر ما رأى ، ولا نجبا مقصيا ما أحس ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائما في كل كيان قائم ، متقادما في كل ركن متقادما :

كل بيت للهدم ما تبتنى الود

قاء والسيد الرفيع العماد

وعلم ان القوتين اللتين هذا اثر نضالهما في الأرض فاعلطان هذا الفعل لا محالة في اشرف كواكب السماء واسماها ، وأضوا عوالم النور واذكاها .

زحل اشرف الكواكب دارا

من لقاء الردى على ميعاد

ولناد المريخ من حدثان الدهر

مطف وان علت في انقباد

والثريا رهينة بافتراق الشمل

حتى تصد في الافراد

لا بل رأى الكون (١) والفساد متصاحبين متلاحقين في كل حال .

واللبيب اللبيب من ليس

يفتر بكون مصيره للفساد

(١) الكون هنا وفي البيت مصدر كان بمعنى حالة الوجود لا بمعنى المالك

وكانت العبرة التي استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف
على مشهد من ذلك النضال القرمذ ، فوق أفراح الإنسان واحزانه ،
ولو نطق الأبد لما تكلم بغير قوله :

غير مجد في ملتي واعتقادي

نوح بالك ولا ترنم شاد

وشبيه صوت النعي اذا قيس

بصوت البشير في كل نجاد

واذا ذكر متاعب الحياة فكأنما يذكرها ليصرفها عنه بنظره
القائط المستخف فيقول :

تعب كلها الحياة فما اعجب

الا من رغب في ازدياد

ان حزنا في ساعة الموت أضعاف

سرور في ساعة الميـلاد

اسف غير نافع واجتهاد

لا يؤدي الى غناء واجتهاد

كذلك كان احساس المعري بسر الموت ، وهو اوسع احساس
قدر لبشرى ان يحسه من ذلك السر الرهيب .

اما انت فقد نظرت فماذا رايت ؟؟ لعلك ادري بما تنظر وترى
ولكننا نقول لك ما لست تدريه . انك لم تر شيئا يحتاج الناظر في
رؤيته الى غير الحواس - انك تقول « لم يدم حاضر ولم يبق باد »
حيث يسوى المعري بين وكر الوراق ومعامل العظماء وبين منازل
الأرض ودارات السماء . اردت ان تعمم كما عمم ففانك مغزى
تعميمه وجئت بكلام لا لباب له ولا ترضى قشوره ، اذ ما علمنا بين
الحضر والبدو من فرق في التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما
في حكم الموت . وانما يقولون هذا خبر سمعه الحاضر والبادي لان
احدهما قد يسمع ما ليس يسمعه الآخر لتباعد الدار او انقطاع

الاخبار ويقولون يتسابق اليه الحاضر والبادى لمثل هذا السبب .
واما قولك يموت من فى الحاضرة والبادية فكذلك الناس اسما اسما .
وقولك عن كل واحد انه يموت ، وعلى انه لو صح ان يقال هذا فائى
فضل فيه لغير الحواس واى دليل فيه على اللب الحكيم والطبع
القوم ؟؟ وتقول فى القبر انه منار المعاد .

وزمام الركاب من كل فج

ومحط الرحال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق فى هذا الحكم ؟؟ وتقول :

وعلى نائم وسهران منها

قدر لا ينم بالمرصاد

وهذا كذاك بل اضعف اما قولك .

لبد ساقه الردى واظن

النسر من سهمه على ميعاد

فما احسبك تدعى فيه لنفسك اكثر من فضل السرقة .

واذا تجاوزنا هذا الباب الى غيره وعمدنا الى مقارنة الايات
المتشابهة فى القصيدتين الفيناك تخطيء فى كل بيت تسرقه من المعرى
او تانى بالبهرج من حيث اتى هو بالذهب .
المعرى يقول :

رب لحد قد صار لحدنا مرارا

ضاحك من تزاحم الاضداد

ودفين على بقايا دفين

فى طويل الأزمان والآباد

وليس اجل ولا اصدق من هذا الشعر . وان تعبيره عن تعاقب
الدفين بعد الدفين فى الموضع الواحد بتزاحم الاضداد وقوله ان

اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام لأبلغ ما ينطق به اللسان في وصف تهكم الموت بالأحياء وعبث التراحيم على الحياة . ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك أن تحاكي هذه المعجزة البيانية بقولك .

هل ترى التراب أحسن عدلاً
وقياماً على حقوق العباد
نزل الأقوياء فيه على
الضعفى وحل الملوك بالزهاد
صفحات نقيصة كقلوب
الرسل مفسولة من الاحقاد

التراب ينصف العباد ويصون حقوقهم أحسن صيانة لأنه يبيدهم جميعاً !! فبحقك يا هذا كيف يكون تضييع الحقوق ؟؟ وما الذى لقيه أضعف العباد من أقواهم وأظلمهم أشد من هذا الانصاف والصيانة ؟؟ ويخيل اليك أنك أبدعت حين قلت ان الملوك يستضيفون الزهاد فى التراب ، وهذا من فضائل الموت !! ، فهل تعنى ان الزهاد لا يستضيفون الملوك فيه على السواء ؟؟ فان كنت لا تعنى ذلك فقد قلت ما تعلم انه خطأ وقتله لغرض غرض - اما المعرى فقد احاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئاً من الصدق او بلاغة الأسلوب حين قال :

وعزير على خطط الليالى
وم اقدامكم برم الهوادى

وهذه هى البلاغة الجادة التى لا لعب فيها .
وعندك ان طهارة القلب هى موته . فاذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقياً مفسولاً كقلوب الرسل . افليس من موت القلب ان لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب ؟؟
يقول المعرى :

خفف الوطء ما اظن اديم
الأرض الا من هذه الأجساد

وانت تقول :

والغبار الذي على صفحاتها
دوران الرحي على الأجساد

المعري يسأل :

ابكت تلمكم الحمامة ام غنت
على فرع غضننها المياد

وانت تأتي ان لا تكون لقصيدتك حمامة تغنى وتبكي فتقول :

ضاق عن تكلها البكي فتفتت
رب تكل سمعته من شاد

ثم يروك وانت تبارى المعري بمباراة المضحكين ان تزعم
لناجيتك ولنفسك انك نظمت في فلسفة الموت وبذذت شيخ المرة في
آية من آياته !!

على انك قد تعذر بعض العذر في قصورك من هذه الناحية لانك
مجبور فيه لا مخير . اما الامر الذي لا نعلم لك منه علرا فان ترى
رجلا كفريد بقصيدة لا يرد فيها اسمه ولا سيرته الا عرضا ، وأن
لا يخرج تأبينك له عما قد يرئى به فرد من غمار الناس . ولو كان
ذاك لضيق في مضطرب القول او لنقص في بواعث الاسى على الرجل
لما خفى تعليله ولكنك تعلم كما نعلم أن مصر الحديثة لم تنجب من
دعاتها رجلا لقي في حياته وموته مما يستثير دفاثن الحزن ويطيل
مدد الرثاء بعض ما لقيه فريد . فتهاونك في قضاء حقه وتوفية
قدره لا يكون الا لعجز أو كنود . فان لم يكن هذا ولا ذاك فلا حنة
لا تزال تغلى في نفسك على الرجل بعد موته . وانت بأسبابها اعلم .

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق ان يقصد المرء المدح فيقدح في الهجاء ، او
ينوى الدم فيأبى بما ليس يفهم منه غير الثناء . واشد من ذلك
ايضالا في سقم الذوق وتغلغلا في رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث
أراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو في موقف التأبين والرثاء
والعبرة بالفناء .

ولست أدري اى ما جن من نظامينا قال هذا البيت في رثاء
احدى العيان :

رحمة العود والكمجاء عليها وصلاة الزمار والقانون

ولكن لا ريب ان قائله ، مهما سمج منه الهذر في مثل هذا
الموقف ، او عيب عليه سوء الظن بفن الفناء واقدار ذويه - اسلم
ذوقا في بيته هذا من شوقى في رثائه لعثمان غالب . لانه تعمد
الهزل فقال له وما كان شوقى كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل
هذا الهراء .

ضجت لمصر غالب	في الارض (ملكة النبات)
امست (بتيجان) علي	ه من الحداد منكسات
قامت علي (ساق) لفي	بته واقعدت الجهات !!!
في ماتم تلقى الطيب	عة فيه بين الناحات
وترى (نجوم الأرض) من	جزع موائد كاسفات

والزهر في أكمامه يبكي بدمع الفاديات
 حست آقاي الربى والعهد فيها مومضات !!
 وشقائق النعمان آ بت بالخدود مخمشات

بل تما لا مرء فيه ان صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء
 وبر بوعده لنفسه واغبط بما دب عليه من المعاني الدقيقة والنكات
 الانيقة ... لانه استطاع ان يذكر الزهر بمناسبة ولو في غير
 موضعها ، ولعمري كيف يكون شاعرا من لا يذكر الزهر او الثمر
 كما يذكر العابد الله والعاشق ليلاه . بذكرهما في غضبه ورضاه ،
 وفي لهوه وبلواه ، ، وفي فرحه وبكاه ، وفي غيظه وهواه ، وفي يقظته
 وكراه - ويذكرهما حين يصف الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل
 المدينة الآهلة ، وحين يروى عن النعمة السافرة او يتحدث بالمصيبة
 القاتلة والمنية العاجلة . وكيف يكون مطبوعا على الفن ، مدلهما
 بفتن الجمال من اذا وصف الجثة الحائلة ، لم يقل انها صفراء
 كالاقحوانة ، او المتميز من الحنق لم يحسب انه يتفلق كما تنفلق
 الرمانة ، او المتدلى من المشنقة لم ير انه يهتز اهتزاز البانة ، او
 قطع الرقاب والعياذ بالله لم يشبهه بقطف الريحانة !! وشوقى لم
 يوف هذا الغرض فحسب بل أروانا ان الأزهار لا تجرى على سنن
 المجاملة في النواح ، فعل النساء ، وانما تحزن على من هى غرس
 يده وجنى معرفته ونبت نعمته ورعايته . فلو فجعت البلاد مثلا
 بموت عالم من علماء المعادن لما سمح لزهرة واحدة ان تذبل دمة
 اسفا لفرقه وانما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والدوق المليح
 فكان يجعل اسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جمودا
 لهول المصيبة فيه . وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمران
 التحاس احتقاننا ، ولبن القصدير ذوابانا ، الى آخر ما هنالك من
 ألوان العذاب التى تلم بالمعادن الصلاب - ولو كانت النكبة في عالم
 « جيولوجى » لما قال شيئا من ذلك بل كان يقول (مثلا) ان
 الطبقة الرملية في ناحية كذا تجنو التراب على رأسها فرعا ورعبا ،

وإن الطبقة الجبرية في موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وإن هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الأرض أو تزلزل بها الكمد وناهيك ما كان يقوله لو نفذ القضاء في شاعر جليل فإنه أبقاه الله لن يقنع بأقل من الحاق الزحاف والأقواء والخين والسنداد وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قبلت أو تقال من يوم خلق الله الشعر إلى يوم يبعثه من القبر الذي الحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون ، وإي تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر التسدابة في سهيل الخيل ونهيق الحمير ومواء القطط وعواء الكلاب ونقيق الضفادح لو كان العالم المفقود من علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام؟؟ هذا ما نسأل الله اللطف فيه فإننا أن احتملنا حداد الألوان والاشكال فلن نطبق الصبر على حداد الأصوات والأقوال .

ولكن وا أسفاه !! لا بد من التضحية ، لا بد من فقدان والخسارة في هذه الدنيا الغانية !! وليس من السهل أن يقول الإنسان أن الأشجار قامت على « ساق » واقعدت الجهات الست التي ما برحت قاعدة في مكانها منذ الأزل ، ولا من الهين أن يحشر الطبيعة « لا أكثر » في ماتم تكون فيه إحدى النائحات « فقط » ولا من اللعب أن يصل في كل ساعة إلى ابكاء الرياحين والأزهار والمعادن والأحجار - ولا سيما النفسية منها - كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهل ، ولكي يقول الرجل الغاني منا هذا القول وبهبط إلى قرار هذه المعاني العميقة ، لا غنى له عن التضحية بالدوق السليم والوصف الصادق والتخيل الصحيح والشعر الجدي والشعور القوي ، وهذه كلها ضحى بها شوقى على مذبح فنه فما تأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهه امتعاضة حزن أو مسحة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقى ولا مبالاة ... تقول ولكنه مع ذلك كان سخيفا غشا ضعيف الملكة مشنوء السليقة ... وتقول هذا صحيح ولكنه قال ما أراد أن يقول وتغنن وروى . أجل !! انه لم يرث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذي يرثيه أولئك السذح السلاء ، الذين يحسبون أن الإخصائيين إذا ماتوا فجمعوا أحدا غير المواد التي

تفرغوا لدرسها وتوفروا على البحث فيها ، والذين اذا اودى أحد
اولئك الاخصائيين اسفوا ووصفوا اسفهم هم عليه (مباشرة) ولم
يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غارب
السحاب تارة اخرى ، او يكلوها الى الطبيعة كلها بارضها وسمائها
وامواتها واحيائها ويجملوا النفس الانسانية او نفس المصاب بالبلية ،
آخر من يحس في هذا الكون بفقد عزيز !!

ولقد كنا نود أن نقف عند هذا الحد في الابانة عن براعة شوقي
وافتنانه ، والاشادة بخلايقه وبيانه . لولا اننا آثرنا أن لا بفوتنا
سؤاله عن أنواع من النبات لم يسمها في تلك المناحة التي أقامها -
ماذا كان من شأن القطن باصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل
ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والتفأ في ذلك الماتم المقيم
الذي كانت الطبيعة فيه احدى النائحات « فقط » ؟؟ انه سكت عن
هذه الأنواع وغيرها فهل ذاك لانها لم تكن من اتباع النباتي الكبير أم
لان من خواص تلك الأنواع التي يعلمها الشعراء ويجعلها النباتيون
انها مضیعة للعهد ناكرة للجميل ؟؟ أم لعلها لا تنتمي الى عالم النبات
وان ردها الناس اليه ، كالمرجان بحسبه قوم نباتا وبحسبه آخرون
جمادا وهو من عالم الحيوان ؟؟ أم هو الصديق في الخير والأمانة في
التبليغ اوجبا اليه ما قال فلذكر فريقتا وسكت عن فريق : رأى
الرجل الاقاحى باهتة ذابلة على غير عهدا وابصر شقائق النعمان
تخمش خدودها فابرا ذمته وادى اماتته ، ولم ير القطن ولا القمح
ولا سواهما يصنع شيئا فربا بشعره من شهادة الزور والتخرص
وسجل عليها ما سجل من جمود الطبائع وقسوة القلوب ؟؟ تلك
أسئلة ما كنا نسألها لولا اهميتها وخطورتها ولولا اننا تعلمنا منذ
الآن ان نرتب أعين كل جامد ونابت وحى ، حاشا الانسان ، تعرفنا
لجلال الانباء واستطلاعا لخفايا الحوادث قبل أن تنبض بها أوتار
البرق ويطر بها التجابون ، ولو اننا عرفنا ماذا ينبغي أن تحلو
الامة من موت الاخصائيين من رجالها ، وانها مسئولة أن تضن
بأرواحهم مخافة ان تمتنع نرجسة او تسود فحمة ...

انتقل شوقى من رثاء العالم النباتى الى رثاء العالم الطبيب
فقال مفصلا مقسما :

اما مصاب الطب فيه
فسئل به مالا الاساة
اودى الحمام بشيخهم
وما بهم في المعضلات
ملقى الفروس المسفرت
عن الفروس الثميرات

والقارىء يرى انه لم ينبح نحوه الاول . وما كان ذلك بلا ريب
استهجانا له او توبة عنه وانما خاتمه القريحة وخذله الاختراع .
والا فماذا كان يمنعه ان يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة - مثل هذه
الآيات .

طريت لمصرع غائب في الأرض رسل الحيات
قدمات (غائب) جندها فتمردت بعد (المات)
امست جراثيم الملاريا من سرور (ظاهرات)
وتفرق التيفوس والـ تيفود في كل الجهات
وتألب المكروب والـ بيكتريا بعد الشتات
وبكت قوارير الصيادل بالدموع السائلات

فهذه آيات ليس لنا من فضل فيها سوى فضل التقليد
للشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليدنا فلين لنا فيم اخطانا المحاكاة
وخالفنا الاحتذاء ونددنا عن القياس ولكاننا بصاحب « الامتياز »
الأصلى بعض بنانه ندما على فوات هذه التتمة الصالحة فانه ليس
أغص للنفس من فرصة يلوح لها تأنيها بعد معالجتها واليأس منها .
كذلك يؤبتون يامن خلقتهم فكيف تراهم يتهمون ؟؟ وأما والله
لو توخى هذا الذى شمر لتأبين عثمان غالب ان يمازح الرجل بكلام
يعرض له فيه بعمله وصناعاته مسترسلا في الدعابة مستهترا
بالمجون متبسطا في الفكاهة لما استطاع ان يضرب على أوقع من هذه

النغمة . فليت شعري بأى ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعدين
تباعد القطبين ؟؟ ابذوق الشاعر المفطور الذى يفرق بين شبهات
السرائر وهجسات الضمائر ، والذى لا تدق عنه أخفت همسات
العواطف ولا تلتبس عليه أخفى ألوانها ؟؟ يقولون أن اذن الموسيقى
المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا أن فطرة الشاعر
ينبغى أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الاحساس
المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا فما ظنك بأمر شعراء لا يميز بين
احساسين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان -
أحدهما لا تحسه النفس الا فى أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط
والانشرح ، والثانى انما يخامرها فى اقدس مواقف الموت وأجلها :
موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته . . لا الا هكذا فليمت
الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن فى دار الخلود .

مه ! مه ! ان من السخف لما تعافه الجيلة وتقرز منه النفس
تقرزها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذى تمنونا بلادة
الاغبياء بالتحرك لانتقاده اشنع هذا النوع وأقلده لانه كالورم الذى
يخيل الى الفر من احمراره ولمعانه انه ماء الحسن وروثى الصبا
فيهوى اليه يقبله ويرمقه ، وحسب الطبع فقرزا أن يرى الدمايل
مقبلة مرقوة .

ومن نظر الى عشرة ممسوخين فى بقعة واحدة فاشمازت نفسه
من رؤية عاهاتهم ومقازدهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر
فترى حولنا العشرات والمئات من ذوى العاهات النفسية البارزة
يستحسنون مثل هذا الشعر على غثائنه وعواربه بل هو لا يروقهم
الا لما فيه من غثائه وعواربه - خلائق كل ما نستطيع أن نعلل به هذا
الاعوجاج فى طبائعهم وأذواقها انها تلفت لفرط ما أخذت الى الكسل
والضعة وتلوثت لحقارة المشاغل التىبقى لها أن تعنى بها وتكثر
لها ونفلت لشدة ما توالى عليها من عنت الدهر وذل الحوادث والحاج
الاحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبتها هذا البلاء للآزب
شر ما تمنى به نفس بشرية : أعقبتها العجز عن احتمال الجد والتمادى

في الهزل واللجاج في السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من الحقائق ديدنا لها بل كادت تكون خلقا ثابتا فيها . وساء فهمهم للدوق السليم فاصبح جهد الدوق في زعمهم التصنع والاسترخاء وتخثت الترف المؤنث . وما كان اللين والترطب قط هنوانا على ارتقاء الدوق الانساني وحسن استعداده وانما هما تقيض هذا الدوق واقرب الى الوحشية منهما الى الانسانية - الا ترى الى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الادميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش احشاءهم وتقضم عظامهم وتلع في دمائهم وهم يسمعون آثيهم ويتلذذون بأوجاعهم كأنهم تلك السباع الضارية تتلذذ بما تأكل وما تشرب !! فاذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان في ذلك العهد !! كانوا في عهدهم الذي بلغوا فيه من الترف ونعموة الاخلاق مالم يروه الرايون عن أمة قبلهم ولا بعدهم .

(وبعد) فكأنما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الدوق فانتقل الى عيب آخر من عيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعلامات الا وهو الاحالة وعقم الفكر . بيد انه توفق هذه المرة الى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان قم تر آية الله أحيى المومسات

يامر الشاعر المرثي ان يقوم من الموت . ولماذا ؟؟ ليرى آية ... فيحسب السامع ان الآية التي سيراها الدفين بعد بعثه اعجب واخرق لنواميس الكون من رد الميت الى الحياة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم ان الاعجوبة التي يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هي النظر الى ميت يبعث ... فهل سمعتم في العى والاحالة ما هو أحق من هذا اللفظ الفارغ الخاوى ؟؟ اليس هذا كيقاظ النائم « ليتفرج » على نائم يتيقظ وكحمل المقعد الى أوروبا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر الى مقعد يعرض في المسارح للمتعبين ؟؟ وعلى

أن بعث العلامة المدرج في أكفانه أغرب وأشد استحالة من بعث الموميات التي يعنيه شوقي لأن موت الأمم مجازى لا تستغرب الرجعة منه وموت الأفراد حقيقى لا رجعة منه في هذه الدنيا . وعدا هذا فإن كان القصد من بعث الأستاذ غالب أن يرى « الموميات » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر فلا حاجة الى قلب نظام الكون وازعاجه في ضريحه ، لا شئ الا أن يرى المعجزة التي قد رآها . . . وبعد فليذكر شوقي أن الذين يدعوه بالموميات هم أولئك الذين نفق بينهم شعره ونفذت فيهم دسائسه وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فإن كان هو شاعرا لأحد فهو شاعر الموميات ، وإن كان لشهرته حد فهو اليوم الذي يقال فيه عن تلك الموميات .

خرجت بنين من الثرى وتحurكت منه بنات

ثم ما هذا الولع من شاعر « الموميات » بأقامة الأموات !! فهو ينادى عثمان « قم تر آية » ويصيح بسليمان « قم بساط الريح قام » ويهتف بالأستاذ الامام شامتا « قم اليوم فسر للورى آية الموت » ويقول للشهيد فريد « قم أن اسطعت في سريرك » وغير ذلك مما لا نحصره ولا نود أن نحصره . . أفلم يكفه قيام الاحياء حتى يقوم له كل من في التراب !!!

ولم ينس شوقي براعة المقطع فختم القصيدة باليق بيتين يتمان ما فيها من خلل الادراك وضلال الحس ، وهذان بيتا الختام .

الفكر جاء رسوله فاتى بأحدى المعجزات عيسى الشعور اذا مشى رد الشعوب الى الحياة

ففى كل مختصر من عجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ، ويكاد يضع كلا منهما بالموضع المقابل للآخر . وقد ألم العامة بداهة بهذه الحقيقة فتسمع منهم من يقول أحيانا . « ليست هذه مسألة عقل . هذه مسألة احساس » أو ما فى معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لا يظن الى هذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شيئا واحدا ثم يعكس الآية فيقول ان الشعور يرد الحياة وكلنا يعلم أن الحياة هى التى تنشئ الشعور ولا بدع فان من لا يفكر الا سهوا ولا يشعر الا لهوا ولا يمارس اسرار الحياة وقضاياها الغامضة الا عفوا لحرى أن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية .

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة أوجز ما توصف به أنها نكسة أدبرت بقائلها ثمانية قرون وكان فيها مقلدا للمقلدين في استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك أيها القارئ شاعرا من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعا أول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكتافها ويتحرى عجائبها ويستكنه أخلاقها وشمائل نفوسها من آدابها وفنونها ، الى أن سيق اليه ضيعة من صنائع شوقي فأسمعه أن ها هنا شاعر يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الألقاب الا لقباً مزدوجاً ، فهو اما شاعر الشرق والغرب أو شاعر الأرض والسماء أو شاعر الانس والجن أو شاعر الاقدمين والحديثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين - الى أشباه هذه الألقاب ، هذا الرجل يستمع ويعجب أن يتقق ذلك لأحد كائننا من كان في العالمين : وقد تعلم أيها القارئ أن اذكىاء الغربيين وخاصتهم لا بالقول الاطناب والتهويل ، وانهم يقدرون اعجابهم ويزنون كلماتهم فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الاقدمين والحديثين عندهم بله الانس والجن والأرض والسماء ، وان كان لاحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتى أو هوجو أو جيتى بشاعر أوربا وان كان لكلهم من شيوع صيته وقدم أيامه وكثرة المعجبين به وتداول طبقات كعبه - مسوغ لهذا اللقب . فلا بد أن يلمح الشاعر الغربي في تلك الصفات التي سمعها مغالاة وشططا . بيد انه يجب

ان يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية وان يعرف المعاني والمثل العليا والخيالات التي اذا نطق بها الشاعر وجد في مصر من يمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وان يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعي ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هي قصيدته في استقبال أعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجبا فيقول : « تحول بقلبك عن الطريق وانج من جماعة الظباء السائرة في الرمل ومن جماعه الظباء .. » وهو ترجمة قول شوقي :

اثن عنان القلب واسلم به

من ربوب الرمل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظانا أنه من مقتضيات التنبيه والتحذير كما يقال « النار ! النار » و « الحصان ! الحصان » الا انه يتوهم ان فصائل الظباء والايائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم في هذا الجانب من الأرض فيتقونها ويهربون منها لضرواتها وعراها . ويود لو يرى هذه الأوابد الأفريقية فما هو الا ان يسأل صاحبه في ذلك فاذا الجواب حاضر يلقي اليه بابتسامة الأستاذ لتلميذه الجهول : « كلا : كلا : ليس في بلادنا ظباء مخيفة ولا أليفة - ما الى هذا قصد شاعرنا ، وانما هو يعنى النساء » .

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟؟ يسأل الرجل مستغربا فلا تتغير ابتسامة صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فأننا نشبه المرأة بالطيبة اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الطيبة الكحلء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة طيبة » .

نقول : ولا يبعد أن يرتضى الشاعر الغربي هذا التشبيه على

انه منقول عن العرب وربما قال بشيء من التهمك : « حسن تشبيهكم هذا ، ولكنى لا أدري لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحلء ، ولم تكون شوارع مصر تلوأ ان كان لابد أن تكون حسانها ظباء ووعولا ؟؟ » ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه : « اذن فصاحبكم عاشق يتغنى ! »

وما اشد ما تكون دهشته اذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد عنقه كمن لا يرى داعيا لذلك الافتراض : « ولماذا ؟؟ ان الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الاقدمين » .

فيفاجأ الرجل ويجد انه قد اأال غير قليل على تباين الأمزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه ايضا أن يحيل التقليد في الغزل على اختلاف الخلقة وتفاوت التركيب ؟؟ ولئن صح ما ترجم له ولم يداخله شك في نهضة الأمة ليكون اذن بين فرضين اثنين ليس واحد منهما بجائر في العقول : فأما ان الشرقيين وكبت قلوبهم وأشرجت شهواتهم بحيث اذا احب السلف العربي اتى الخلف المصرى متغزلا بعد عدة قرون ... وهو مستحيل . وأما ان هؤلاء الشرقيين يعيشون في ابان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض احدهما ويحيا ويموت الآخر حتى ما يحس اقوى خوالج النفس واعنفها وهى غريزة العشق الجنسى . وما خلق الله لامرء من قلبين في جوف واحد .

على انه يجنح الى حسن الظن ويخيل اليه انه اخذ يفهم بعض الفهم ويقول لترجمه : « اخالنى قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا » فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسرا : « ان الغربيين كما يتسلون احيانا بلبس ملابس الرومان واليونان الاقدمين أو يتزيون بزي الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم ان يتسلوا

باحتراف أسلوب الشعراء من الأمم النازحة والأجيال الفابرة .
رياضة وتفكها لا جدا والتزاما . وهذا الاحتراف عندهم لا يعد من
جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه انه رياضة مقبولة .

فيفغر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات
يحسبها اختاخي والغازا . ويظن انه يذب عن شاعره المزدوج الألقاب
حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب
بالغرض من نظم القصيدة وان قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضا
وانما نظمها في مستقبل أمة ناهضة .. وتحية لزعمائها ..

الى هنا ينتهى العجب باليقين - فان كان الرجل قد ارتضى
التقليد في التشبيه والفزل واغتفر نقض المدينة العامرة ببابا وقلب
الشوارع الممهدة هضابا ، فمن وراء عقله ان يرتضى استهلال الكلام
في نهضات الأمم بالفزل صادقا كان او مستعارا ، وان يفهم الابتداء
بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلء ، تمهيدا للثناء على
مآثر العظماء ومناقب الزعماء ، وان يثن ويتوجع ، في حيث يفخر
ويترفع ، وان يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصيح
والأهابة ، فذلك ما لا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وان
اعوزته دلائل الحكم على منحى أفكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا
فكفى بما سمع برهانا يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج ان يظلم او
يتجانف ، ثم لا يكون بعد ذلك الا معدورا .

* * *

ونحن لم نمثل في الحديث المتقدم بشاعر غربي لان فهم هذه
البسائط وقف على الغربيين ولكن ليسهل على الذين تقيب عنهم
بساطتها ان يفهموا على أى وجه تلوح غثائت التقليد لمن خلصت
عقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مجرى القواعد المصطلح
عليها . والا فإى انسان تجرد من الانخداع بالتكرار وخلع ريقه

التقليد لا يشعر لأول وهلة بالخلط الشائن في هذا الضرب من الشعر؟؟ ما الشعر الا كلام فان كانت له ميرة على الكلام المتبدل فميزته انه اجمل وابلغ واحسن وضعا للمعاني في مناسباتها . فهل يتكلم الرجل في السوق والبيت فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام وتقدير الحوادث الجسام ، حتى اذا تهيأ للشعر لم يخجل أن يخلط في قصيدة واحدة بين أبعد موضوعين عن الانتظام في نسق واحد؟؟ فلو أنه كان صادقا في عشقه لقبح منه ذلك بين ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاغته بين الملا ، فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان !!



لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لا يقيم الا على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نوى تبيع ذكراه ، ومعاهد صبوة. تذكى هواه ، هجيراه كلما راح او غدا حبيبه يحن الى لقاءها او صاحبة يترنم بموقف وداعها . فاذا راح بنظم الشعر في الأغراض التي من أجلها يتابع النوى ويحمل المشقة ثم تقدم بين يدي ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء الى ملوك الحيرة وفسان وفارس وينتجعون الأمراء والأجواد في أقاصى بقاع الجزيرة يحملون اليهم المدائح يداونها أحيانا بوصف ما تجشموه في سبيل المدوح من فراق الأحبة وآلم الشوق وطول الشقة وأحيانا كانوا يصفون الناقة التي تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظما والطوى ومواصلتها الليل بالنهار سعيا الى المدوح كناية عن الشوق الى لقاءه ، وكان الفرض في الحاليتين واحدا وهو تعظيم شأنه وتكبير الأمل في مشوبته، فكان الابتداء بالغزل ووصف المطى في قصائد نظمت في المديح

وما شاكله من اغراض حياتهم المتشابهة لا يعد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج الى النموذج والاستاذ فأقاموا المتقدمين اساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لا يزالون يفدون على الامصار فينهجون نهج اسلافهم مطبوعين أو مقتدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع في هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الادباء الى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدما حسنا فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول وافرد كثيرا من الغزل في قصائد قائمة بذاتها وأشهر هؤلاء أبو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ويتجنب ذلك في العظام كما صنع أبو تمام في يائته المشهورة التى مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفي رائيته التى اولها .

الحق ابلج والسيوف عوار فحنار من اسد العرين حنار

وكما صنع المتنبي حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه الى الروم فقال مفتتحا :

**ذى المعالى فليعلون من تعالى هكنا هكنا والا فلا لا
حال اعدائنا عظيم وسيف الد ولة ابن السيوف اعظم حالا**

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من ارض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الراى قبل شجاعة الشجعان هو اول وهى المحل الثانى

وكما صنع الشريف واضرايه فى كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار أو انعدم ونشأ من شعراء الحضر جيل كان أحدهم

يقصد الأمير في المدينة وأنه لعل على خطوات من داره فكانما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة ما يذكر من الفلوات التي اجتازها والمطايا التي انضاهها وحقوق الصبابة التي قضاه . وكان الواحد من هؤلاء يزج بفزله في مطلع كل قصيدة حتى في الكوارث المدلهمة والجوائح الطامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون . والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المدح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقول أبواب لم تخطر لأحد من المتقدمين على بال . . . ، يجيء شوقي فيتماجن ويتصابي في مطلع قصيدة ينتظر بها مستقبل أمة ويقول فيها :

قد صارت الحال الي جدها وانتبه الغافل من لعبه

ويجىء اناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين انه مجدد وأنه عصري بل انه شاعر العصر .

وهل تعلم ما الفزل الذي استحل لاجله اتيان هذه المجانة والعبث؟؟ فقد يكون له عذر الاجادة لو كان مبتدعا فيه أقل ابتداء وان حق عليه اللوم لوضعه في غير موضعه - ولكنه هو الفزل الرث الذي ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظامين والشعارير بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فأى سوقة من صعاليك الوزانين لم يفسل رجليه في وعاء هذه المعاني التي نضج بها شعر أمير الشعراء؟؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعي العروض لم يقل في وصفه: « قد يتثنى كالبانة » « أرداف مرتجة كالكتبان أى كأكوام الرمل » « خد كالورد » . « حسان كالأقماء أو كالنجوم » . « مشية كمشية القطا » . « عينان لهما سحر هاروت وماروت » « ظبية الرمل » الى بقية تلك الكناساة الشعرية المنبوذة . وهذه هي روح العصر فيما يحدسون !!

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته الى موضوعه . فأما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التي نشرتها

الصحف يومئذ لولا أنها متناقضة متدبرة وإنها خلو من الأسباب
والحجج التي بنى عليها الكاتبون رأيهم وأما الكلام الشعري فيه
ففي بيت القصيد أو بيتيه وهما :

قطرهم كالقطر هز الثرى وزاده خصيبا على خصبه
لولا استلام الخلق أوسانه شب فنال الشمس من عجه

وإنه لاليق تحية استقبال تنلو ذلك الافتتاح ، ولو كان للشاعر
فضل في التناسب المحكم بينهما لكان أشعر الشعراء ولكن (مكره
أخوك لا بطل) .

ولا أسهب في التعليق على البيتين ولكني أروى مشاهدة يتبين
منها القارئ مبلغ ما يقعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ،
وإن في الأطفال اللاعين خيالا أظن وتمييزا أصفى من شاعر يعكف
على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة .

بين أشرطة الصور المتحركة ولا سيما الأمريكية منها مناظر
خاصة لأطراب الصفار وجلب المسرة إلى قلوبهم . ومن أشدها
غربة المطاردات الجامحة التي تجرى فيها خوارق العادات فتتحرك
الدور والجواسق وتنطير الكراسى والأواني . وهى كثيرة لا أظن
زائرا من زوار الصور المتحركة لم ير واحدا منها - حضرت منظرا
من هذه المناظرة فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يعدو
ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر والهجوم والمراوغة إلى أن
وثب الهارب في منطاد ، وكان المطاردي يعدو خلفه في سيارة فوئيت
به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق في الملعب طفل لم يستفزه
العجب فيشب ضاحكا . وما أخالهم إلا كانوا مصدقين ما يروونه
وإنما ضحكوا لأن المنظر مضحك على كل حال ... فليت شاعرنا
الكبير الذى قرع أبواب الخيال نيفا وثلاثين سنة حضر يومئذ فسمع
ضحك الأطفال من سيارة تطير فيعلم أن طيران القطار بقاطرته

ومركباته في الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل
أن يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى الطار شابا فوق الرأس في
طريقه الى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وأرساته يمنونه
ويكبونه - لقلب حدره من الاستهزاء على ولعه بالأغراب ، والأمر
بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة السذج ولولا أنهم
يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعب بينهم رقية
كهذه الرقية الهزلية : « الحمد لله الذي لم يخلق للجمال أجنحة
فكانت تطير فوق بيوتكم الخ الخ » .

أما ان القطار بالمطر يزيد الثرى خصبا على خصبه فتشبيهه
لا أصل له . ولو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأي قرينة من القرائن
أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من
المنفعة . على أنه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار
والقطر غير التجانس في الحروف . وهكذا تتعلق أشعار المقلدين
بالحروف والألفاظ لا بالحقائق والمعاني . وشوقى كما قلنا في أول
المقال مقلد المقلدين .

النشيد

ربما كنا في غنى عن نقد هذا النشيد اذ كنا لم نلق احدا بتقلبه ويحله المنزلة التي احدثه فيها لجنة الاغاني والالحان . فان المنا به الماما في طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهي توقيف بعض القراء على قيمة احكام اللجان ، وانها في اكثر الاحيان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والادب في مصر فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . اما في أوروبا فربما بلغ من تهاون الادباء بشأنها ان يطبع احدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض « لم تجزها جامعة كذا » كما صنعوا برسالة شوبنهاور التي كتبها في الاخلاق وقدمها الى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت سقطتة الابد .

تصدت لجنة الاغاني للحكم في أناشيد الشعراء وأولت نفسها هذه الكفاءة - وانها لكفاءة تتطلب الاحاطة بأشياء جمة قل بين أعضاء اللجنة من يعد ثقة في واحد منها . فمن شروط الحكم في الاناشيد القومية أن يكون عارفا بالشعر ، خبيرا بتوقيع الالحان على المعاني ، مطلعاً على أناشيد الأمم ، بصيراً بأخلاق الجماعات وأطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الرأي والعدل والجهل بأسماء من يحتكمون اليه . فهل بين أعضاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟؟ اننا نعرف من بين أعضائها أناساً نبجل ذكاءهم وتكيز فضلهم في علومهم ونراهم أهلاً للحكم في أعضل المشكلات التي

تفرغوا لدروسها . بيد ان التفوق في شيء لا يفيد التفوق في كل شيء .
واذا علمت ان الرجل من الاخصائيين يقضى العمر في فنه باحثا
منقباً ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطئ ويبرم اليوم ما نقض
أمس ، فأحربك ان تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما يتفرغ له ولم
يدع الحلق به . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل الى
انكارها وندع للعارفين بعد ذلك ان يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق ان بعض اعضاء اللجنة عرفوا في الجلسة
وقبلها نشيد شوقي المقدم اليهم غفلا من الامضاء ، ولا ندرى لم
تكلفوا اغفال اسمه وراوا ذلك شرطا ضروريا لنزاهة الحكم ثم
سمحوا لاحدهم (الأستاذ عبد الحميد مصطفى بك) ان يجهز في
الجلسة باسم صاحب النشيد بعد ان تبين الميل من اكثر الأعضاء
الى رفضه ؟ بل لا ندرى لما أراجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعد
وتمهلت حتى يتم شوقي نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيدا ؟
أمن العار على الأمة ان يكون فيها رجل آخر يحسن ان يضع انشودة
واحدة ؟؟ ولقد كان النشيد على أفواه المثلين في احدى الفرق
يلحنونه ويروضون انفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الأوراق
وترسل الدعوات وتستقدم اعضاءها للنظر في اناشيد مجهولة ،
واسرار مكتومة ؟؟ فهل سعى النشيد وحده الى دار التمثيل ؟

ومما نذكره ان اللجنة لفرط برها بشوقي وحرصها على
اختيار نشيده قبلته على ما فيه من مأخذ وعيوب ، نبه اليها بعض
الفضلاء ، وردته الى صاحبه ليجهتد في اصلاحه قبل اذاعته من
قبلها . وذلك ان عضوا عاب قوله :

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعسر ركن
ليس لكم بوادي النيل عدن ؟؟ الخ الخ

وقال ان البيت الثاني منبتر ، وسال : ما العلاقة بين النصح

بناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والنيل بالكوت ؟؟
فوافقوه على انتقاده . وأنكر بعضهم تأليف البيتين الآتين ومعناها:

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفنا الصليب على الهلال

واقبلنا كصف من عوال يشد السمهرى السمهرى

فانتقدوا قوله « ملة ذى الجلال » ونقل الى أن أحدهم قال :
اننا نجعل مصر وطننا يشترك في حبه ابنائهم ، وأما ملة ذى الجلال
فهى الملة التى يدين بها كل انسان بينه وبين ربه « ذى الجلال »
وهو انتقاد سديد فأننا ان سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون
الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟. انما يقال اتحدوا فى الوطن واتركوا
الدين للديان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا
قوله « الفنا على الهلال » ولا ذكره السمهرى ، وقال آخر ان عبارة
« كصف من عوال » افرنجية التركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا
نحمل تبعته . ويظهر أن النباظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع
المحافظة على المعنى فأصلح بيتا واحدا وترك البقية على جالها .
أصلح هذا البيت .

نموت اليك مصر كما حيينا ويبقى وجهك المجدى حيا

وكانوا قد أخذوا عليه قوله « نموت اليك » لأنها لم تسمع فى
كلام صحيح فلم يستطع اصلاحها بأحسن من أن يقول « نموت
وضاك مصر الخ » - وقد نشر كذلك فى صحيفة الاخبار - فلم
يقتنعوا . فجعلها اديب فى النسخ الأخيرة «نموت فذاك» فافتنعوا !!

ونذكر ايضا انه كان بين المحكمين أعضاء من المغنين والعوادين
جاء بهم ليحكموا فى اى الأناشيد أصلح للفخر القومى واشد اعتلاجا
فى النفس وابتعانا للحمية ومطابقة لنفسية الأمة !! وليديره فى
اللحن الذى يثبت القلوب الخائرة وينهض بالهمم العائرة ويسمعه

الوانى فتضطرم نفسه عزما ، واليائس فيهجم الى الامل قدما ،
والعدو فيتضعض قلبه رعبا وغما .. وليكون اللحن صوت الامة
فى سمع التاريخ ونحوها فى المواقف والازمات فانظر اين ذهبوا بهؤلاء
المظلومين هل تعلم بين من نسम्मهم من مغنينا من ينطق بلسان
النفس بائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ،
وصارخة ومبتهلة ؟؟ وهل فيهم من يروى بانقامه عن جلال الحياة
وجمالها وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغي ان تكون الموسيقى ؟؟
لقد علم كل انسان ان ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى
ولكنها اصوات اللذ والضرعة والحن ينشدها النائم فلا يستيقظ
ويسمها الصاحى فينام .

ثم نذكر تبرع شوقى بالجائزة لنادى الموسيقى . وكان هذا
وعده المعروف ولو انه لم يعد لما دار بخله احدهم انه على غناه
يطمع فى مائة جنيه يحتجتها لنفسه فكان يهم الاعضاء ان يفوز هو
بالجائزة الموعودة ، وجلبهم من اعضاء نادى الموسيقى ، والنادى
بحاجة الى اعانة المتبرعين .

ولا ننس ان اللجنة حكمت المويلحى ، وهو رجل تصل اليه
هدايا شوقى . على انه تخلف عن الحضور فاضطروه الى ارسال
رايه اضطرارا . وحكمت حافظا وقد عرف اصحابه انه يتقى ان
يرمى بالحسد ان اوما بالنقد الى قرينه . ومن غراقبه انه كان
ينحى على التشيد فى الجلسة وقبل اجتماع الاعضاء فلما اعلن
الاستاذ عبد الحميد بك اسم شوقى سكّت .

وعلمنا غير ما تقدم امورا لا نحب ذكرها . ولهما ذكرناه دليل
على هوى اللجنة فى جملتها . فلنعد الى التشيد غير آبهين للحكم له
ار عليه ، وليكن قياسنا اياه ان نلتبس فيه بسط الخصال التى
هى قوام كل نشيد ولا يجوز ان تخلو منها الاناشيد القومية .

يشترط فى النشيد القومى قوة العبارة وسهولتها وان لا يكون

وعظا بل حماسة ونخوة وإن يكون موضوعا على لسان الشعب
وموافقا لكل زمان . وهذا أبسط ما يطلب في أناشيد الأمم . فهل
نشيد شوقي على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط
أو بعضها ؟؟

فأما قوة العبارة فليس في النشيد بيت يدب له الدم في عروق
منشده . وكل مفاخره أفرغت في قالب هو أقرب إلى الأخبار منه
إلى الحماسة . وأقواها قوله :

لنا الهرم الذي صحب الزمانا ومن حدثانه اخذ الامانا
ونحن بنو السنا العالي نهاما اوائل علموا الامم الرقيسا

وليس في هذين البيتين من نشوة العز ما تهتز له النفوس ،
وليس فيهما قوة لا تجد مثلها في قول من يقول « كلز لى بيت سعته
كلدا من الأذرع . باباه على النيل ، وضوء الشمس يشاه من جميع
النوافذ ، إلى آخر أوصاف المساحة .. » فإى فرق بين قص
المعلومات والحماسة إذن ؟؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه
ثم عن اعتات المقيد المجهود فخففت فيه ثلاث همزات تخفيفا معيبا
واستمعى الوزن والقافية على صاحبنا حتى صير « سئلت »
سئلت و « تهيأ » « تهيأ » و « شيئا » شيئا : نعوذ بالله من الشئ .

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه :

بنى مصر مكانكم تهيأ فيها مهدوا الملك هيا
خفوا شمس النهار له حيا ألم تك تاج أولكم هيا
على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن
ليس لكم بوادي النيل عدن وكوثرها الذي يجرى شهبها

فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟؟
أجنى يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟؟

ولقد استوطنا شوقي مطية الفلسفة والواعظ بعد ان ركب
حمارها يبيت واحد سوقى المعنى وهو قوله :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

فراح يجرى عليه ذهابا وايابا فى كل مكان ومقصد . حتى طلع
لنا باذن حماره الفلسفى هذا فى موعظته « على الاخلاق خطوا
الملك » ولم يجد على الباب من يقول له : يمينك او شمالك ..
فكانما كان شوقي على رهان ان يخالف قواعد الاناشيد ما أمكنه ،
وكانما لهذا احرز السبق لا لان نشيده كان كما وصفته اللجنة
« اكفاهها واوفاهها بالفرض واجمعها للمزايا التى ينبغى ان تتسقى
لنشيد قومى مصرى » فانه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من
كل شرط يتسقى للانشيد لما عرفنا كيف كان يسبق فى هذا المضمار .

وفى المقطوعة الاولى خطأ تاريخى ما اظرفه فى نشيد امة تفتخر
بتاريخها القديم فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر
مصر وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها . واما
تاج الفراعنة الاول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد
وتاج ملوك الوجه البحرى ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة
الاولى فى المدارس الثانوية ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا
يحلون بها بصور الطيور المعبودة او التى يرمز بها الى العبادات ولم
تكن الشمس قط حيلة لهذه التيجان .. فياحبذا النشيد تتفنى
به امة فيكون مطلعها عنوانا على جلجلها بتاريخها .

ولا يكلفنا القارئ ان نأخذ على شوقي مبالغته فى قوله : « خلدوا
شمس النهار له حليا » فاننا لا نحاسبه على كلمة له فيها وجه
تاويل .

واما الموافقة لكل زمان فاننا نرى الرجل قد حسب اننا سنظل
طوال الدهر كدائنا فى يومنا هذا ، فنظم لنا نشيدا لا تتخطى به فى
جميع العصور ان يتهيا مكانا . وان لا نبرح نشرق فى التمهيد وناخذ

في الاستعداد وتبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشبيد الأركان . وما علمنا شاعرا قوميا يطلب اليه أن يكون فال الأمة وهاتف مستقبلا فينصب فيها نقيب النحس وينلرهما جمودا لا تتزحج منه أو تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقى بالمواقف من قصائده الأنفة ، وأجهل ما يكون هو اذا وقف موقفا وطنيا أو قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعتسا البصيرة أن يكلف « ابن بجدتها » انشاء دعاء قومى ، أى دعاء لا يعوقك دين من الأديان أن ترثله في البيعة أو تشدو به في الكنيسة أو تصلى به في المسجد ، فيخيل اليه أنه اذا جمع فروق الأديان كلها في جملة واحدة فقد أتبع له هذا الغرض . فيستشفع في دعائه المعروف « بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبى الحق » فيكون ماذا ؟ ؟

يكون أن الاسرائيلى يحرم هذه الصلاة في بيعته لأنه لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد - وأن المسيحى لا يدعوا الله به في كنيسته لأنه على احترامه دين مواطنه المسلم لا يعتقد النبوة الاسلامية ، ولأنه يدين بربوبية المسيح لا برسائله فحسب وأن المسلم يصلى به وحده فكانه لم يشر فيه الى دين غير دينه ، وأن الدعاء القومى لا يكون دعاء لأحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو أن طاهيا صناعته تجهيز الموائد قيل له أن ثلاثة من المدعوين في الدار ليس يشتهى أحدهم طعام الآخر ، فعمل على اطعامهم جميعا بمزج اطعمتهم كلها في صحفة واحدة لطرده من فوره فاعجب لشاعر قوم يففل حيث لا يففل الطهارة ويفرق في غفلة الذهن حتى أحسبه أحيانا يعتمد الامعان فيها ويطرقها من الباب الذى يفضى به الى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصاه ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد أن خطر له أن يجمع شفاعات الأديان أجمع كى تكون شفاعاة لكل دين ، عمد الى لصق الأنبياء نشاة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذى لا يناسب هذا المقام ، والذي

لو كان هو وصفه الفذ لا سواه لوجب السكوت عنه هنا . وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدري تساعر مصر من رق من هرب موسى ؟ انه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به !! وقد نجد في خفاء الريف كياسة تمنعهم ان يطلبوا الاقالة بما يذكر بالذنب ، او يتوسلوا الى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفاء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقى ونشيدته كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية فلا هو في الشعر ولا في النثر شاعر قومي موفق العبارة : وقد قرأناهما لتشابه الخطأ فيهما وربما كان خطأه في النشيد أخف وأهون ، من حيث أن الأناشيد لا يصلى بها في المساجد والكنائس ، لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد أننا لا نرى معنى لزوج الأديان في الأناشيد الوطنية ، فقد كان يكون ادل على الوفاق أن لا نجعل وفاق الأديان مباحاة ومأثرة ، لأن المرء يباهى بالشئ النادر او غير المنتظر وهذه الامم المتحضرة والمتبدية اليس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت أناشيدها من ذكر الدين ؟ ؟ أترأها لا تحب أن يكون الوفاق شعارا لها .

ولقد قدمنا اننا لا نقصد الى الافاضة في نقد النشيد ، فكنا نقارنه بما نعلمه من الأناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . أما وقد اخذنا من مساوئه ما اخذنا فليس يسعنا أن نهمل مأخذاً سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد. عرض النشيد للتلحين : ذلك أنهم يستقبحون تلحين احدى مقطوعاته وهى هذه :

تطاول عهدهم عزاً وفخراً

فلما آل للتاريخ ذخوراً

نشانا نشاة في المجد اخرى

الخ الخ

ويقولون أن التنوين لابد أن يسقط في الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت فإذا انتهى المنشد مثلاً الى كلمة « فخرا » ومد بها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟ ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ؟ ولسنا نحن ممن يبالي بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد في موقفه والملحن في صنعته

تقول : هذا هو النشيد الذى « يبقى لحركة هذه الامة شعاعاً ، ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان منارا » كما تقول اللجنة - نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقرأه احد فيما علمنا الا عجب من تفضيله على النشيد الثانى ومن اجترأ اللجنة على تقديمهما معا الى الصحف غلوا منها فى استجهال الناس ومبالغة فى احتقار رأيهم . ولا أخفى عن القارئ اننى ما كنت أظن فى جمهور قراء الأدب استقلالاً يقاوم تأمر الحكّمين والصحافة وسامسة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك فى حكم اللجنة ونزوعا الى احلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشيد المنشورين ، وفى هذا الاستقلال امل نفتبط به ونحمد بشائره .

عباس محمود العقاد

النشيد القومي

واينا ان ننشر هذا النشيد بعد ما كتبناه عن نشيد شوقي
ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذي يخشاه شوقي من التفتات
الأذهان الى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر
بعد شيئا من شعره للقراء وشوقي يملأ طباق الأرض باسمه كل يوم
مند نيف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشيدين لا يخفى
على أحد . وقد اتصل بنا أنه كان ثالث الاناشيد التي اختارتها
اللجنة فاذا حسينا للمحابة حاسبها جاز ان نقول أنها حكمت
بتفضيله على نشيد (كبير الشعراء) ويرى القارئ التفاوت بين
النشيدين حتى في الخصلة التي اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب
هنا أشبه بمناجاة النفس وهي في نشيد شوقي مخاطبة أجنبي
معتزل للشعب الذي يتأديه . وهذا هو النشيد :

يا بني النيل واحفاد الألى
اطلموا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الأهرام والمعالم لا يبتنى
الا خصاصا من هشيم
اذكروا ان نرى هذا البلد
من تجاليد الجنود العظماء
لا تظنها أرجل المعادي الألد
وبكم أبناءهم بعض الذمءاء
تربها التبر المصفى المنتقد
لا الذي يقنى الشحاح الأديءاء
فامنسوا كنزكم أن يبدلا
أو تعيشسوا عمركم عيش عديم

لن تروا في الأرض عنه بدلا
ما لكم كنز سوى هذا الاديم

اذكروا ان عليكم واجبا
لبنينا في بطون الأعصر
فاحفظوا هذا التراث الواصبا
فهو حق الوارث المنتظر
نتقاضي الارث عصرا ذاهبا
فلنصنه للعصور الآخر
سنؤديه اليهم اكتملا
لم يفيره زمان او خصيم
فحمى مصر تحاماه البلى
وبنوها خير من يحمى الحريم

اذكروا حاضركم كيف يقام
ليس يفنينا تلبد القدماء
ما التماثيل المهيئات الجسام
وابو الهول رهين الصحراء !
ما المسلات على باب الرجام
والنواويس وفيها المومياء !
ما عظيم تالد من العسلا
في ثنايا حاضر غير عظيم !
فاجعلوا عهد العسلا متصلا
كاتساق الدر في العقد النظيم

اذكروا مهما بلغتكم سؤدا
انكم لم تبلغوا اوج الكمال
ابعدوا فوق المنال المقصدا
فبنو الشمس لهم اقصى المنال

كم عبدنا قرصها التقدا
فاتقدنا في حماس ونضال
نبتنى الهيكل يتلو الهيكل
خالدا في ساحة الرمل مقيم
وسيبقى موطن الشمس الى
يوم لا يبقى لها قرص ضريم

اذكروا ان التفاني والفلاب
في سبيل المثل الاعلى البعيد
نفثا فيكم وانتم من تراب
شعلة غراء من معنى الخلود
شعلة تجلو عن الحق الحجاب
وتصفي النفس من رجس الوجود
فاضرموا في النفس هذى الشعلا
اضرموها تكفلوا الفوز العميم
مثلما اضمرت النار على
مئيج الرب بمخرب كريم

اذكروا ذلك وامضوا قدما
لا تكن وجهتنا غير الامام
تزدجينا دقة القلب كما
يقرع الطبل لجراد لهام
فنسوغ الموت ذودا للحمى
ونذيل العمر سعيًا واعتزام
فبحق نحن احقصاد الالى
اطلموا القجر لتاريخ قديم
رفعوا الاهرام والمسالمة لا بيتنى
الا خصاصا من هشيم

عبد الرحمن صدقي

صنم الألعيب (١)

شكرى صننى ولا كلاً صنم . ألقى به يد القدر العابثة فى ركن
خرب على ساحل اليم - صنم تتمثل فيه سخرية الله المرة وتهكم
« أروستفانيز السماء » مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على
جعل مصابها فكاهة الناس وسلوانهم . و - لم - لا يخلق الله
والمضحكات وقد آتى النفوس الاحساس بها واشعرها الحاجة
اليها ؟؟ ولم يلتزم فى الانسان مالا يتوخى فى سواء من وزن واحد
وقافية مطردة ؟؟ .

هنالك اذا على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية أن ترمى
بهذا الصنم . وكأنما أرادت أن تبعث على تدبر القدرتين : هنا تبج
مزيد وأبد لا يحد ، وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد ، وحياة متجددة
وأواذى متوثبة متولدة - وههنا نفس خامدة وقوة راكدة وجبل
باردة جامدة . لا تمتد يدها الى الثمار تهدلت بها غلذبات
الأشجار ، ولا يملأ صدرها حسن الاصال وروعة الأسحار . ولا
يستجيش الحياة فى عروقها منظر الكمائم تنفتح عن أنق الأزهار ،
أو القمام ترسم فى صفحة السماء المقلوبة أبهى الصور أو الخضرة
فى مستهل الربيع تكاد العين « ترى » ذبوعها وانتشارها بل « وثبها »
من شجرة الى شجرة ومن عود الى فنن حتى تعود الحقول الى آخر
مدى البصر بحراً مائجاً من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر

في الصباح الليل وقد انقلب اكبره الانداء فتساندت رؤوسها
 كان سربا من العذارى على الماء بوغتن فتزاحمن تحت ثوب أبيض .
 كلا ليس في كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك
 هذا الصنم لان باطنه شاعت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس
 نفسه وصار لا ينقذه منها ومما منته به من صنوف البلاء الا ان
 تهدمه فؤوس الكاشفي طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول
 لم يرفع عنه فقد ولد ميتا ولم يجد نور الحياة وحرها ولا اغنيا
 عنه من جمود طبعه شيئا وان كان وهو ملقى بين انقاض حياته
 يتوهم انه ملهب الموج بسياطه ومدير الافلاك بتدبيره وحكمته .
 يقول كلما اعجبه شكله أو حاله أو اتاره نبذه واهماله « انا اله
 الشعر » فتلطمه الرياح وتدحرج ثقله على افرز البحر وترميه
 الامواج برش من سخرها وتسك انقابه برعد من ضحكها فما اجله
 من اله يتضحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس العذر
 اذا كانوا اسلم فطرة من أن يكثرثوا لدعى اخرس لا ينطق ولا يبين
 واذا تركوه غارقا في طوفان من الاوحوال النفسية مدفونا في قبر من
 بكمه العجيب . واى بكم أعظم مما اصاب به هذا المنكود الذى
 لا يكفيه ان يدعى النطق حتى يريد أن يكون شاعرا ونبيا فنيا
 ورسولا بدين هداية في الأدب ؟

وانت ايها القارئ قد تعلم أن سر النجاح في الادب هو علو
 اللسان وحسن البلاغ وقوة الاداء وان على من يريد أن يشرح ديننا
 جديدا « لاطفال » هذا العالم أو ان يحدثهم بما احب اسلافهم في
 سالف الزمن أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه ان يذكر أنهم لم
 يتعلقوا به بعد ولا استطعموه فاسمراوه وانه لكى يغريهم به ينبغي
 له ان يتوخى القوة في العبارة عما يريد فان الناس خليقون ان لا
 يؤمنوا الا بمن عمر صدره الايمان .

وقلما ظهر كاتب أو شاعر الا بالاداء وكثيرا ما يمتاز بعض

الكتاب وتخلد آثارهم لما أوتوه من القدرة على اجادة العبارة عن آراء غيرهم كماى اسحاق الصابىء كاتب الملوك والامراء وان كان لا محل لهم بين المفكرين وأصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة محور انقلاب فى تاريخ العقل الانسانى والذين يستطيعون ان يستغنوا الى حد ما عما لا مسموح للاديب عنه . وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الدهن المشبوب والمواطف الذكية تكون الحاجة الى ضرورة فن الاسلوب .

ولعل هذا اكبر الأسباب التى أفضت الى خمول شكرى وفشله فى كل ما عالج من فنون الادب لانه لا اسلوب له اذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء ان يجيل نظره فى كلامه ليدرك ذلك اذا كان على شىء من الاطلاع فاذا لم يكن فهو لا يعيبه ان يرى ان يستعمل اللغة جزافا ويكيل «توافيق وتباديل» كما يقول الرياضيون - من الكلام غير واضحة ولا مؤدية معنى بعينه ويسطر على الطرس اصداء متقطعة لاصوات مألوفة لا رموزا منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك فى موضعه من هذا النقد .

ويخيل الينا ان شكرى على كثرة الشكوى فى شعره من الخمول وحقده على اغفاله الناس أمره كما هو ظاهر من قوله :

قد طال نظمى للشعار مقتنرا (?) والقوم فى غفلة عني وعن شائى
هذى المعانى تناجيهم فما لهم لا ينصتون بافهام واذهان ؟

وتعزيه بأن الزمان سينصفه وبديل له من خصومه وتظاهره بالاطمئنان الى حكم الايام فى قوله :

ارمى بشعرى فى حلق الزمان ولا ابيت منه على هم وبلبال
مجاراة للمتنبى وتقليدا له فى قوله :

انام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختتم

وعلى انه عجز عن ايضاح هذا الفرض الضئيل اذ من الذى
يستطيع أن يفهم شيئاً من ارتضاء الحسان له ؟ ومع ذلك لا يتحرج
أن يقول فى نفس القصيدة التى انزل فيها دينه على الناس وأطلقها
من قيود القافية - والوزن أحياناً - لكيلا يعوقه عن التحدر شيئاً
معاتبا الغرام :

انقصينا ونحنن مقربونا

من التبيان والأدب القسزير

ولعمري ما عدا الواقع فى قوله انه مقرب من البنيان والأدب
ولكن التقرب منهما شئء وورود شرعتهما شئء آخر ، وهل بل طرف
لسانه من معينهما الفياض من يقول :

وفى السعى شئء يعوق الطماح فيخطى الأجل ويصمى الأفلا

ولو سئل هو بنفسه فى معناه لضاقت عليه مذاهب العول و من
يقول فى صفة المشنوق :

ضافت الأرض عن مآتمه فاء تناض عنها برقة الماحود

كأنما حسب المرزوء فى عقله - أن كل ما فهمناه من البيت هو
المقصود - أن المشنوق سيظل معلقاً فى الفضاء الى الأبد أو أن
الأرض تضيق عن شئء من المآتم أو المحامد أو أنها هى التى لفظته
وأعلته لتمكن حضرته من وصفه . ومن العجيب والذى يدل على أن
شكرى متكلف لا مطبوع وأن ما يزعمه من أنه من أهل المذهب الجديد
فى الشعر باطل أنه هو نفسه قال ينمى على المتأخرين حماقاتهم
وسخافة مناحيهم .

« وإذا صلب أحد الأمراء قالوا ان قاتليه اجلوه فلم يرضوا له
القبر وينشدون أبيات الانبارى التى يقول فيها :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الممات
اصاروا الجو قبرك واستعاضوا من الأكفان ثوب السافيات

ويقولون انظر الى مهارة الشاعر في قلب الحقائق واظهار اللميم
مظهر الحسن . . وليس ادل على جهل وظيفة الشاعر من قرنهم
الشعر الى الكذب وليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق ومفسر
لها وليست حلاوة الشعر في قلب الحقائق بل في اقامة الحقائق
المقلوبة ووضع كل واحدة منها في مكانها الخ .

فما احلى هذا الكلام واصدقه وما ابعد قائله عن العمل به
وادناه الى المتأخرين الذين مسخوا الشعر « حتى صار » كما يقول
« كله عبثا لا طائل تحته » او ما جدره أن يكف عن دعواه أنه من رجال
المذهب الجديد في الشعر وهو لا يقلد الا السخفاء من القدماء
باعترافه . اترى هذا المفتون يحسب انه يستطيع أن يخدع الناس
بهذه النظريات التي ينقلها ولا يفهمها اذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما
كان شعره من النوع الذي ينعاه على سواه ويعيبهم به . أم ظن أنه
يكفى أن يلوك المرء جملا كالبيغاء ليكون في نظر الناس حديثا سائرا
مع الزمن مؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر أن هذا هو الذي يعتقده
شكري فينا تراه يقول في مقدمات ديوانه « ان الشاعر الكبير (مثله
بالدهاة) يخلق الجيل الذي يفهمه ويهيئه لفهم شعره » ترى له
في بعض الدواوين يصف ليلة ذكرها :

بيت النسي فوق الزهور مرققا

كما انبعث الطل الرقيق ليقتطرا

او قوله في فلسفة « تزواج النفوس » :

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما

ومهرها الحب لا يفلو لها المهر

من لي بنفس ادى نفسى بها مزجت

كما تمازج في ودياتها الفسدر

والنفس في عيشها شتى منافلها

منها القلوب ومنها السمع والبحر

(المقصود هو البيت الأخير) فأى جيل يريد هذا المائق أن يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السير كما ينطقها هو) أما كفى أن فى الدنيا سخيفا مثله حتى يطلب أن يوجد من أمثاله جيل برمته ؟ وأى بلية تكون شرا على العالم من هذه ؟ وأى خطب يكون أدهى وأعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال القائل :

كاننا والماء من حولنا قوم جلوس حولنا ماء !
وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد الى النقد التفصيلى أن نورد للفراء مثالا لشعر السخر الذى يباهى به قال :

ناصر صروف الدهر مستقبلا	قذاله لو جزته اقصر
فجز من اتته خصلة	لعاهها من خلفه ترفع
قالدهر إن اقبلت ذو لمة	لكنه من خلفها اقصر
مطلعه مثل طلوع المنى	وحسرة ما خلف المطلع
ولا ترم بالدم صفعا له	فانما يصلع اذ يصفع
قراعه مثل قراع الظبي	وانما يقرع اذ يقرع
فاطل قفاه بهداد لعل اللون من روقته يخدع	
وغض عنه نظرا واعيا	فانما يمد يدك ما يطبع
وان جرى فى الدم كره له	فخير ما يجدى لك المبضع
حجامة لا شك فى نفعها	وقد يضرب المرء ما ينفع
ولا تعف صحبته انه	بالرغم من صلفته اروع
واحن له الراس لكى لا ترى	فانها من خلفه تلمع

ونحن انما نمثل لبيكم هذا المسكين ولا نستقصى مخافة أن نحتاج الى نقل كل شعره على التقريب . ونقول على التقريب لان له أبياتا مبشرة فى أجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره على مثالها منسوجا على منوالها لصار صنما معبودا لا منبؤذا كما هو الآن . وما بالعجب أن يكون له بضعة أبيات

مفهومة فانك لو جلست ساعة الى مجنون ابله لجرى لسانه
بجملة او جمل تلمح فيها اثر العقل . وان كان لم يفكر
في مبلغها من الصواب وحظها من السداد . وللعقل الداهل المضطرب
انتباهات فجائية لعلها من اقوى الدلائل على الرء فيه وقد جمع
صاحبنا الى البكم الذى مثلنا له ضعفا في الذهن واضطرابا في جهاز
التفكير لم تنفع في معالجتها كثرة القراءة والاطلاع على خير ما
انتجت العقول . وقد يعلم القارئ او لا يعلم ان الاطلاع قلما يجدى
اذا كان الاستعداد مفقودا وكان الدهن غير مستو او صالح « لهضم »
ما يتلقاه والانتفاع به وتحويله الى فكرة مكونة من امتزاج الجديد
بالموجود - كالمعدة الضعيفة لا ينفعها ان تزحمها بالوان الطعام
وكثيرا ما يكون الاقبال على الكتب والولع بها نوعا من الشره تحول
من المعدة الى الدماغ . وما عدونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه
حيث يقول « ويتماز الشاعر العبقري (يعنى نفسه ايضا) بذلك
الشره العقلى الذى يجعله راغبا في ان يفكر كل فكر » ولكن ما به
ليس من هذا القبيل وشرهه لا يجعله يحس الا بالحاجة الى قراءة
كل كتاب لا الى التفكير . هذا هو ما يعانيه شكرى ولعله من اسباب
ضعفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب العفاريث وقصص السحرة
والردة والجان لما وقع في نفسه من ان هذا حقيق ان يقوى خياله
ويجعل له أجنحة يحلق بها في سماء الشعر وفاته هو وامثاله ان
الخيال يجب ان يطير بجناحين من الحفيضة وان كل كلام ليس
مصدره صحة الادراك وصدق النظر في استشفاف العلاقات لا يكون
الا هراء لا محل له في الادب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان
العواطف وضعف الروح تعيش في عالم الشعر ؟

وليس في الوضوح وقوة الأداء وحسن البيان ما ينفي العمق لان العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقا كما يشاء ولكن مع الوضوح والجلالة اذ ايها أحوج الى النور يراق عليه ويكشف عنه ما تلمسه اليد وهي تمتد وتعتش به الرجل وهي تخطو

أم ما يقوص عليه المرء في اغوار الفكر ؟ فكل غموض دليل اما على
المعجز عن الاداء أو التدجيل أو استبهام الفكرة في ذهن صاحبها .
على أنه من افحش الخطأ واضره بالاستعداد واشده افسادا
للفطرة أن يتكلف المرء غير ما أعدته له طبيعته وأن يعالج محاكاة
النسور اذا كان طوقه لا يتجاوز دبيب النمل فان العقل الصغير
اذا التزم حدوده وقام بما يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل
الى غايته من طريقه ولا يجس الحاجة الى قوة العقل الكبير .
وقد ركب شكرى هذا الجهل فتكلف ما لا يحسن وأراد أن
يكون شاعرا وكاتباً من الطراز الأول وظن أن الاجتهاد يغنى غناء
الاستعداد فلا هو بلغ اية درجة مما طمع فيه ولا هو ابقى على
خلقه الوداع وقناعته بميسور العيش ومنزل انزله الله وحال
البسه اياها .

ولما كان السقم في الكلام مرده السقم في الذهن فسنبدأ نقدنا
بالدليل الضمنى المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب
ببيان الفساد الذى اكتظت به داووينه ونختم الكلام بتقصى سرقاته
واغاراته على شعراء العرب والغرب جميعا .

لا نقول ان شكرى مجنون فنحن أرفق به من أن نصدمه بذلك
واعرف بحاله وبأمراض العقل من أن نهيجه الى الخبال بالايحاء
والتذكير والالاحاح ولكننا نقول ان ذهنه متجه أبدا الى هذا الخاطر
- خاطر الجنون - وان فكرته ماثلة لعجو حياته والخوف منه
منغص عليه كل لداته وعلااته وانه حتى في طعامه يتوخى ما يظن
أو يقال له انه يكفل اتقاء هذه النكبة أو يساعد على المقاومة كالسمك
والبيض والمخ واشباه هذه الالوان - وان ذكر هذا اللفظ على مسمع
سته يدخل في روعه أنه هو المعنى به فيمتقع - ولا يخفى أن اتجاه
الذهن له دلالة خاصة وهو قرينه قلما تخطىء اذ لماذا ينصرف المرء

الى خاطر بعينه لا يعدوه في روحاته وغدواته وفي طعامه وشرابه
ويقتضه ومنامه وفي اقواله وكتاباته من شعر ونثر - او منظوم
ومنثور على الاصح - ولكن اتجاه الذهن لا يصح أن يؤخذ به وحده
في البت بأن المرء صائر لا محالة الى آخر الطريق . واكثر اهل
الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شيء كثير من الشذوذ والجنون
والعبقرية بسبيل وهما في الحقيقة صنوان وحالتا العقل فيهما
متماثلتان ، فالعبرى ذهنه مكظوظ بالاراء حافل بالذكريات يتمخض
ابدا عن ادراك علاقات بين الحقائق والأصوات والالوان لا تفتن
اليها عقول الاوساط . والمجنون في ذلك نده وقريعه وكلاهما ترجع
مميزات تفكيره وعمله الى فرط النشاط في بعض نواحي المخ او
فتورها او قابليتها للتنبيه والتهيج وكثيرا ما تنقلب العبقرية جنونا
والجنون عبقرية . وقد فطن الاقدمون الى هذه العلاقة ولمحوها
وان كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير أن جنون العبقرية منتج يخرج
- كما يقول افلاطون - الشعراء والمخترعين والانبيا اما الجنون
المألوف فهذا عقيم نعيد صاحبنا شكرى منه . ولا ينبغي أن يتوهم
أحد أن العبقرية هي الجنون فليس أفحش من هذا الخطأ ولا اقتل
من ذلك الظن لان العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العادى
وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع من الاضطراب في التوازن العقلى
والعصبى .

قلنا ان ذهن شكرى متجه الى هذا المعنى وقد يكون هذا غير
راجع الى علة أصيلة فيه الى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل
عليها وبرهقتها به كأن يكتب جزءا من ديوانه في شهر واحد حتى
كانما هو ماجور على ذلك ومشروط عليه أن يتمه في وقت محدود .
وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال ان حدثته نفسه باحراقه
بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحتنا ولم يعط نفسه حظها من
الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبى حقهما عليه وظل يخرج
للناس الجزء تلو الجزء كأنما يخشى أن يخب به المرض ويوجب

بمقله الداء فلا يستطيع أن يصدق بالشعر ويسخر بالناس !!
وماذا أجنأه كده ؟ كان كل جزء يصدر فكانما هو حجر وقع في بحر
فلا هو « صدح » ولو في حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء
عقله .

والى القراء امثلة لذلك . قال من قصيدة « الحب والموت » .
جنينى الى وجه الحبيب جنون جنون يهيج القلب وهو شجون
وقال من قصيدة الدفين الحى :

فهاج هياج الشر فى الاسر طرفه وادركه حتى الممات جنون
وقال من قصيدة غاية الحب :

وان كنت عندى جئت بالمقل والحجى

وان لم تجىء فالقلب مجنون فأت
ولكن وجلى منك جن جنونه فها انا من حبي بحسبك هاتر
وقال فى « طبع الانسان » :

ان بالمرء جنونا جاعلا نوبة للشر فيه تحتم
لا ينال البرء من نوبته او يذيع الشر منه والالم
وقال من « مرآة الضمائر » وكان له فى البيت معدى عن
لفظ الجنون :

وفى كل وجه من جنون ومن اذى ملامح لا تخفى تناديك بالجهر
اذ من الذى يستطيع ان يدعى ان فى كل وجه ملامح من الجنون
ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرئ غيره سكران ؟
وقال من قصيدة « سلوان الجنون » :

هسى ان تجن النفس فيكم جنونها
فلا ذكره تصبى ولا فكسر يخطر
فان جنون النفس سمد وراحة
وان عشاء الحبيب ذاك التذكر

فأنسك حتى لست أدري أعائش
 علي الأرض تسمى أم دفين معفر
 فإن يبلغ الحب الجنون فلا تلم
 أما كل مجنون علي الهجر يعذر
 وقد كان له مندوحة عن تمنى الجنون وكان في وسعه أن يطلب
 الموت أو السلوان ولكنه لشقوته يحسب أن المجانين سعداء لا يكره
 احدا منهم خاطر ملح أو وهم جائم ولو أنه سأل طبيبه لعرف منه
 أن بعض المجانين يعذبون أنفسهم بما يتخيلون وأنهم كثيرا ما يخلقون
 لأنفسهم جحيما من الأوهام يصلونها ،على أنا لا ندرى من أين جاءه
 ولماذا ظن أن حبيبه سيلومه ويعاتبه علي الجنون اذا بلغ الحب ذاك
 ولكنه معذور علي هذه السفسة علي كل حال والناس كذلك
 معذرون اذا لم يقرءوا نظمهم .

وقال من قصيدة « صنم الملاحه » :

بلغ الغرام الي الجنون فلا عتاب ولا ندم

وقال من قصيدة « الحسود » :

وأدركه مس الجنون واظلمت عليه السماء والنهار جميل

ومن قصيدة « بالله ما تفعل لو بفرك » :

بالله ما تفعل لو بفرك انى عرتنى جنة من هواءك

وكيف لا يذهب لبي والهوى اذا مضت لى اشهر لا اراك

ومن قصيدة « أنا مجنون بحبك » :

أنا مجنون بحبك فأزل غلة صباك

ومن قصيدة القديم والجديد :

ومن العشق جنون خابل يزدرى المرء له وقع التهم

أما الحب جنون وجوى ورجاء واجترام وندم

وقد ترقى في هذا المعنى من القول بأنه هو مجنون الى نسبة

الجنون الى الناس كلهم الى الحياة نفسها والدمر ايضا . قال من
قصيدة « جنون الحياة » :

لا تزع فالدهر مجنون كل حى فيه مغبون
جن من حول ومقدرة وكذا ذو الحول مجنون
فتضاحك ثم قل ابدا ان هذا الدهر مجنون
دهرنا دار المجانين كل حى فيه مسجون

ومن قصيدة « بعد الحس » :

وكنتم أعد الحسن فيك فطانة وان جنونى فى هواك صواب

ومن قصيدة « وحى الشعر » :

مجنون النعيم والبؤس فيهم وهى تبدو لغيرهم كذكاء
وفسر البيت بقوله « أى عواطف الشعراء تهدى غيرهم ولكن
من أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والآلام » فانا أشهد الله والناس
انى لا أحس هذا الجنون . ولكنى أحسبه سينكر على الشاعرية
لهذا على الأقل . وقال من قصيدة « مشترى الأحلام » :

لو يستحيل المسحيل على الورى

وانأل من أحلامه ما اطلب

لجننت جنسة قادر متحكم

يرضى على هذا الأتام ويفض

فالحمد لله الذى لم يحكم فى الناس نزوات جنونه وقال من

قصيدة صوت النذير :

ام ضحكة الرجل المجنون من حزن

لشد ما نال منك البؤس يا رجل

حتام تنكر حقاً غير مشتب

لا يكره الحق الا من به دخل

وهذا تقييد مجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بفضه اياه
راجعا الى اى سبب غير الجنون :

وقال من قصيدة بين الحب والبغض :

وان بقلبي من جفائك جنـة
فان رام يوما قتلكم ما تائمـا
فاسقى جنوني من دمائك جرعة
وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

فيظهر ان حبيبه عرف ذلك معه وادرك ان جنونه قد يدفعه الى
الاجرام فتحرى البعد عنه فما اشقاه ! جنونه يفرى حبيبه بالهجر
والهجر يزيد فى جنونه فأتين المخرج من هذه الحلقة والى اى حال
يشتهى به هذا الدوران ؟ ونحن بعد لم نقلب الا جزءا من ديوانه
لا يبلغ عدد صفحاته السبعين وناهيك بما فى الاجزاء الاخرى . ولم
تقل من شعره الا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه والا فان
هناك ابياتا عديدة تضمنت هذا المعنى وان خلت من اللفظ كقوله :

امشى (احدث نفسى) عن محاسنكم
حتى يخال حديثى لفو نشوان
نشوان ليس له عقل فيسكته
الجب خمري وليس الخمر من شانى
فاذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندرى ماذا يكون ؟؟ وقوله
وهو ادمى :

واهتف طول الليل باسمك جاهدا
وماجس هذا الذكر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا في الهتاف ويعترف بأن هذا داء ملازمه لا عرض زائل وقوله :

(غاب رشد الناس) عن انفسهم

ضاع منهم تحت أشلاء الرمم

... الخ الخ

وليس الأمر بمقصود على جولان هذا الخاطر في نفسه وملازمته إياه أبدا وعلى الصباح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب في الطريق كالسكران والاعتقاد بأن كل الناس مجانين وأن الحياة نفسها جنت والدهر كذلك وأن لكل شيء جنونا مجنا وأن الزمن دار المجانين ومستشفى مجاذيب وأن الناس كلهم مرضى كما يقول :

في كل دار من جواه مريض وكل قلب فيه جرح رغيب

كأنما يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا أن الأمر كما وصف والحال على ما زعم وأن كنا نعلم أن الحب بنى عليه بقاء النوع ولكن ليس كل حب ذاهبا باللب نقول ليس الأمر بمقصود على ذلك فإن شكرى على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وهو - تساهلا في التعبير - مرض يجعل صاحبه يتوهم مثلا أنه يسمع أصواتا أو يرى أشباحا تختلف وضوحا واستبهاما حسب درجة الحالة فإذا أصاب العين رات ما لا وجود له في الأذن سمعت ما لم يصدر فعلا من الأصوات وقد لا يصحبه أى اضطراب محسوس في القوى المفكرة وإن كان لا شك مع ذلك في أنه اضطراب محلى في المخ إذا اتسعت رقعة أحدث الجنون وكثيرا ما يصحب بعض حالات الجنون « هذيان الأذن » أى اعتقاد المصاب أنه سمع أصواتا أو أن أرواحا تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن بائع كتب في برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تسير في الطرقات وأشباح الأدميين والحيوان أيضا وكان يسمع أرواحا

تلازمه بالليل تتخاطب وقد تكلمه ويسأل بمضها عن بعض وقد عولج
من ذلك بوضع « الدود » على عنقه اذ كان سببه كثرة الدم الصاعد
الى بعض نواحي المخ .

وقد قال شكرى - أعاده الله من شر ذلك - فى الصفحة الثانية
والخمسین من الجزء الثالث تعليقا على بيته هذا :

او كنور البحر فضيا له وتر فى القلب فضى النغم

« ما رايت القمر الا احسنت كان نواقيس تطن فى اذنى . وان
الد الانغام رنة الفضة المجوثة » اهـ

فهذا كلام لا مجال فيه للتأويل والتخريج وهى قاطعة فى انه فى
كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) فى اذنه صوت نواقيس فضية
ولنا ان نلاحظ امورا :

اولها - ان البيت لم يكن يستدعى هذا القول منه لان معناه
مفهوم بدونه

وثانيها - ان ما (يطن) فى اذنه « كلما » رأى ضوء القمر ليس
له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض - بتقريره ان الد الانغام
رنة الفضة المجوثة خصوصا وان رنتها « ليست » الد « الانغام »
وان كانت « اخلص » الاصوات واصفاها والفرق كبير بين صفاء
الصوت وبين حلاوة النغم . نعم ان الصفاء من عوامل الحلاوة فى
النغم ولكن خلوص الرنة من الاكدار - مع التسامح فى عد الرنة
نقمة - لا يمكن ان بعد « الد » الانغام .

وثالثها - انه كلما رأى « ضوء القمر » طن فى اذنه هذا الصوت
ذو الرنين ويعرف الخاصة واهل الاطلاع والملاحظة ان « ضوء
القمر » مقرون فى اذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والهذيان كما
يدل على ذلك استعمال هذه العبارة فى لغاتها ورابعها انه ان كان

صادقا فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتردد المرء في الذهاب الى انها مريبة وان كان قد كذب على نفسه فلنا ان نتساءل لماذا يعزو اليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب في طائفة من الاعصاب لها اتصال عظيم بالدماغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول في هذا الباب ولكننا قد اطلنا وان كان التحليل ممتعا مغريا بالاسهاب والافاضة ولذلك نجتزئ بملاحظة أخرى وهى ان لشكرى كتابين غير دواوينه أحدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يستحق الذكر الا انه وصفه بأنه « أحلام مجنون » والآخر رواية اسمها « الحلاق المجنون » وهى كذلك تافهة لا قيمة لها وقد احتذى فيها كاتبها روسيا في رواية اسمها « هل كان مجنونا » وموضوع قصة شكرى ان حلاقا ذبح زبونا له لان رأس الزبون تشبه رأس الخروف فأغراه هذا الشبه بذبحه بموساه وهى فى الحقيقة سلسلة قصص من هذا النوع مروية على لسان زبائن الحلاق .

وقد سبق لنا ان نبهنا شكرى الى ما فى شعره من دلائل الاضطراب فى جهازه العصبى وأشرنا عليه بالانصراف عن كل تأليف أو نظم ليفوز بالراحة اللازمة له أولا ولأن جهوده عقيمة وتعبه ضائع ثانيا ولم تكن أمامنا فى ذلك الوقت كل هذه الشواهد فلعله الآن وقد رأى كثرتها وتوافرها - وهى كثرة مروعة - يرجع الى اينا ويرتضى ما ارتضينا له وما هو خليك أن يحمده الناس منه فلا يحاول أن يغالب مشيئة الطبيعة التى لا تخلق الابكم الا وهى قادرة على الزامه البكم طول حياته ولو « جن » تحرقا على النطق .

الجزء الثاني

أدب الضعف

الادعاء في كل بلد كثيرون وفي كل قطر كالدباب يعيشون عيالا على الادب وحميلة على اهله وذويه ولكنهم فيما نعرف لا يعدون العننين في غير هذا الفطر ولا يعدو جمهور الناس معهم أن يلحظوهم كما يلحظ احدنا العناكب ناسجة لها بيتا بين جدارين فيقول لخدمه او ربة بيته ازيلى هذا واتى عليه بالكنسة ثم لا يقولها حتى ينسى أمره ويذهل عن خبره . اما في مصر فالحال على خلاف ذلك والامر على عكسه وتقضيه . يظهر الدعى فيستولى على الميدان ويخسر الناس له سجدا الى الاذقان ويباهون به الأمم والازمان فان سألتهم في ذلك وعلته وماذا بهرهم منه وكيف كان على حد تقصر عنه قوى البشر ومنتهيا الى غاية لا يطمح اليها حتى بالفكر أحالوا وتهربوا وفتحوا أبوابا من التعسف لا تستند الى أصل ولا يعتمد فيها على عقل وظنوا بك الفند وجروا في أوهامهم الى آخر الأمد كأنما التوق الى أن تقر الأمور قرارها وتأخذ الأشياء أقدارها شيء ليس في سوس العقل ولا في طباع النفس . وليس الامر بالهين الذى تتأني مداواته ويستيسر علاج ما يعرض في الآراء منه فان الداء عياء والبلاء عظيم والمصاب كبير . وأصل الداء ومعظم الآفة والذى صار حجازا بين القوم وبين التأمل وأخذ بهم عن طريق النظر مرض في عقولهم شديد الخفاء أورثهم اياه الجهل وما طبعتههم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا لا يملكون أن يصفوا لما يقال لهم ولا أن

يفتحوا للذى تبين اعينهم او ياخذوا لانفسهم بالتى هى املاً لا يديهم
 واعدوا بالحظ عليهم حتى صاروا من كل امر فى عمياء قصاراهم ان
 يكرروا الفاظاً لا يعرفون لشيء منها تفسيراً ويرددوا ضروب كلام
 ان سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبيناً . وما لهؤلاء نكتب ولا من
 اجلهم نتكلف ان تكوى عرق الباطل ونخرس السنة الكذب والتدجيل
 وننقض بناء المنكرات والشناعات التى اقامها نفر من الادعياء نشأوا
 فى غفلة الزمن فان من المستحيل ان نرجع بهم الى سن التفكير
 والبحث والتقصى وحب الاستطلاع ولكننا نكتب ونشرح وننصب
 الميزان لمن يحس انه رزق عينيه ليفتحهما على الاشياء ويجهلها
 فيها لا ليضمضهما دونها واوتى العقل ليتصرف به فى الامور ويتبين
 النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لا ينكر فى ذلك
 حسه ولا يغالط فى الحقائق نفسه ولا يجب ان يستسقى الا من
 المصب او ياخذ الا من المعدن مؤثرة القبينة والهزيمة والفشل على
 احالة الاشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها ونقلها عن
 طباعها وقلب القطر الى اضدادها - لهؤلاء الذين هم معقد الامل
 ومناطق الرجاء نفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها
 ونعدها ونرفع لعيونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التى
 تكون اضواؤها واكشف عنها صابرين على طول تأملهم مفتبطين بعدم
 قناعتهم الا بالاعتناع . اذ ما خير مقلد فى ظاهر عالم وشاك فى صورة
 مستبين ؟ ؟

وليس فى مصر شيء عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن
 الجرى مع الاوهام والذهاب الى اشنع الشناعات واسوأ المنكرات
 ما عرض لهم فى الأدب حتى صاروا اذا عمد عامد منهم الى الالفاظ
 وجعل يتبع بعضها بعضاً من غير ان يتوخى فى تنسيقها معنى فقد
 صنع ما يدعى به كاتباً وشاعراً ومؤلفاً يرضى الزمان بمثله ويعبى
 الامم مكان تده . وقساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج الى
 تنبيه اذ ان يتجشم احد منا اقامة الحججة عليه والتدليل مع التبسط

فى الايضاح وتحرى البساطة فى سوق المبادئ وتفصيل الاصول
وما ندرى غدا بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة اذا راونا ندلى
بالحجة والبرهان على ما لا حاجة به الى الصفة والتبيان وما صار
دستورا معهم لهم به عن ايضاح الاصول والبدائة غنيان ؟ افلا
يعلمون اذا شبهوها بالاطفال تتقاذف اللعب وهى تحسبها ادوات
الكر والطعان ؟ بل ولا يعرفون ما كنا نستطيعه لولا موت القلوب
وعمى العيون واعوجاج الاذهان .

ولماذا لا يرون من اعجب العجب ذلك الذى عليه الادعياء
المقلدون فى امر الادب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الادعياء لا تجد فى
الامر اعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة ثم هو مع ذلك لا يرى
الذى تريه ولا يهتدى لما تهديه . بل ماذا عسى يكون راي الغريبين اذا
اطلموا على هذه المنكرات الشنيعة التى تتمخض عنها الطبائع
المسوخة والاذهان المنتكسة ؟ ان الجيد فى لغة جيد فى سواها
والادب شئ لا يختص بلغة ولا زمان ولا مكان لان مرده الى اصول
الحياة العامة لا الى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة . وكذلك
الفك غث فى كل لغة فى اى قالب صببته وسببته وبأى لسان
نطقته .

وقد لقينا من التشجيع ما يفريشا بالاسترسال ووجدنا من
الاقبال ما قوى الامال فى صلاح الحال وهاكم صنما آخر من
معبودات الضئال نهدمه ونلقى به بين الاطلال .

ترجمة المنفلوطى

عنى السيد المنفلوطى بترجمة حياته فكتبها وصدر بها الجزء الاول من نظرائه وذيلها بتوقيع من لا يبالي دسها عليه فى كتاباته ونحن لا يعنيننا هذا الامر الا من حيث دلالة على طريقة السيد فى الاحتيل على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وامثاله على تأثير الانقلاب والمناصب فى عقول البسطاء كلما ارادوا ان يزقوا الى الناس عرائس افكارهم او يشيعوا الى قبور صدورهم اموات خيالهم . واذا كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد ان يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزنا عادلا لاثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذى يعنيننا من السيد ما خطه يراعه الرشيق واملاه عقله الرقيق فان الذى يستحق ان يكون على ظاهر الامر مقدما على سواه وحريا بان يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول فى « بنات » عقله ثم نأتى على ذكر روياته وقصصه فى اثر هذا وذاك على اننا ربما عطفنا عنان الكلام على الاخيرة قبل الاوان توفية للحقوق وبياننا للفروق وكشفنا عن الحال وايقافنا للقارئ على مبلغ سعة المجال .



السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رجل شريف جاء الى هذه الدنيا المرزوءة منذ خمسة واربعين عاما من ابوين كريمين كرما يثبته ان اولهما - ولا ندرى ايها يعنى ولكنه احدهما على كل

حال - ينتهى نسبه الى الحسين بن على جد كل مسلم ومسلمة
ومنافس آدم بكثره النسل « تفاقم » اللرية . وثانيهما الى اسرة
جوريجى التركية « المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤئل » .

ولم ير السيد زاده الله شرفا ورفعة لسوء حفظ النقد أن يزيد
على هذا في بيان نسبه إلا أشياء ظاهرة لا تحتاج الى تدوين ولا
تحتمل الايضاح والتبيين كقوله أنه « ولد في متفلوط من مدن الوجه
القبلى في جنوب مصر » وأن أسرته هناك « مشهورة بالشرف
والتقوى والعلم والفضل » فان لقب السيد يدل على ذلك ونسبته
تهدى الى معرفة ما هنالك ولكننا نجسبه خشى أن يضل القارىء
ويختلط عليه الأمر فيتوهمه مقدوفا به الينا من الريح - والحق
أن له العذر في خوفه هذا اذ ليس في كتابته ما يدل على أنه مثل
ابناء آدم احساسا بالحياة وفهما لها وجريا على سنتها واداء
لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود الى ترجمته
فنقول وليته اذ عنى يهذه التفاصيل البديهة كان قد ساق الينا
ما هو حقيق أن يعين الناقد على تقدير أثر العوامل الوراثية في
تكوين اخلاقه النادرة التى يصفها بأنها « انقباض عن الناس ووحشة
يحسبها الرأى صلفا وكبرا وما هى بالصلف ولكنها الرزانة والوقار
والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور والترفع عن مخالطة
من لا تعجبه اخلاقه ولا تجمل في نظره اطواره . وعفة حتى عن مديده
الى أبويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وأدب وحياء وحلم
يظنه البطان عجرا وضعفا فاذا غضب وقليل ما يفعل فهو الليث قوة
وشجاعة وايمان قوى كالطود الراسخ وصبر جميل على ما يذهب
باب الحكيم من حوادث الأيام فقد مات له طفلان في اسبوع واحد
فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمة ثم
ماتت زوجته بعد ذلك فجلس الى اصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها
كانما المرزوء سواه وليس أحقر في نظره من مدح المادحين ولا أحقر
في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس أبغض اليه من الكذب

وكثيرا ما كنت اسمعه (!) يقول « لا طلعت على شمس ذلك اليوم الذى يرضى فيه عنى الجاهل أو يعجب برأى البليد الى آخر ما لا يستكثر على سليل النبوة العربية والفتوة التركية .
ولكننا بثنا لتقصيره فى ترجمته لا نعرف مقدار فضل الوراثة ومبلغ الاكتساب فى هذه الفضائل وفى كل هذا الادب الجم الذى جعله - كما يقول - الكاتب الفريد الذى يحافظ على أسلوبه البليغ فى جميع حالاته وشئونه سواء فى ذلك المعانى المطروقة لكتاب العربية الاولى او التى لم يكتبوا عنها شيئا ولم يرسموا لها اسلوبا مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته لا عارية من عواريه .

وليس فى أن يترجم المرء لنفسه من عيب ولا هو ببدعة ممن هو كالسيد الشريف المسبب لا يحدث الا عن نفسه ولا يصدر فيما يكتب عن سوى يومه وامسه . ولكن ما هكذا يكتب الناس عن أنفسهم ويتقدمون الى قرائهم بتراجمهم ووصف آبائهم . وما للقراء ولاجدادك الذين لم تزودنا بهم علما فيشفع لك ما أفدت فى سماجة ما كتبت ولقد قرأنا لجيته شاعر الالمان الضخم كتابا فى تاريخ حياته يقع فى أكثر من ستمائة صفحة ولا نذكر أنه أورد اسم أبيه حتى ولا فى سياقة الحديث دع عنك خلع حلل الثناء على أجداده . ولقد جمل وكده أن يشرح لقارئه أدوار نموه العقلى وكيف تكونت أخلاقه ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفان تذهنه وهو ما يعنى قراء التراجم . أما الاجداد والاباء فما دام الكاتب لا ينوى أن يذكر ولا يستطيع أن يعرف عنهم أكثر من الأسماء فخبر له وللناس أن يسدل عليهم أستار الخفاء حتى لا يجمع الى الجهل أو العجز تقيصة المباهاة الكاذبة أو عيب الادعاء .

على انه ان فاتنا هذا الذى كنا نحب أن لا تخلو منه الترجمة ولم نعتض منه الا ما هو منشوء ثقيل على النفس فان فيما كتب السيد الشريف الجليل العربى التركى الحسينى الجورجى

المنفلوطى الكفاية فانه اعزه الله لم يألنا كشفًا عن آرائه وأخلاقه وفضائله ومحامده وأسرار نفسه ودخائل صدره وهو اجس خاطره ولم يفسن على قارئه بوصف أحواله وكيف يكتب وكيف يأكل ويشرب ويلهو ويلعب ولأى شئ يطرب ومم يقضب وماذا يمقت وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه فى غنى عما يبديء فيه فى ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يشبتها لنفسه حتى نسى أنها له فانتحل غيرها من المقالات !!

وبالها من شجاعة لا تجعل صاحبها يحفل التهم أو يعنى نفسه بالصدق فيما نحلها من الشيم ! فهل تعرف أيها القارئ من أى ضروب الشجاعة هذه فان لها لأنواعا وضروبا ؟ ليست شجاعة الايمان ولا شجاعة يبعثها احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا شجاعة الطيش وانما هى شجاعة .. الطعام !! نعم والموائد المدودة والاخونة المنصوبة . وانك أيها القارئ اذ تنكر هذا القول علينا وتمط شفتيك وتزوى ما به عينيك لتدل بذلك على أفحش الجهل وإفصحه بأسرار فعل الطعام . ولكنك اذا ساءلت نفسك ماذا عسى ان يخشى السيد الشريف الخسيس بالنسيب بعد أن يجمع حول مائدته الأسبوعية فيمن يجمع هؤلاء المتسولة من اصحاب بعض الوريقات القدرة ويملا لهم بطونهم كنت حقيقا أن تفهم ما نريد من شجاعة الطعام . اترك لم تسمع بالمثل العامى القائل « اطعم الفم تستحق العين » ؟ وماذا صنع السيد أكثر من الجرى على السنن العامية فى كل شئ ؟ فى كتابته وفى معاشرته وفى اتقائه اللسن - وهذا هو السر - فاعلمه - فى أنك لا تسمع به فى هذه الوريقات ولا تراها تلهج به مادحة ولا قاذحة .

ومن ظريف ما نرويه فى هذا المقام أن السيد سمع بعزمنا على اخراج هذا الكتاب فجاء يدعونا الى مائدته وأرسل يلح علينا فى « تشريفه » فلم ينقذنا من الحاحه ولم يتجنا من موقف الفدر ونكران جميل مائدته الا المرض ! فما أحسن المصائب فى بعض الأحيان ؟

الحلاوة والنعومة والأنوثة

وبعد فماذا فى كتابات المنفلوطى مما يستحق ان يعد من اجله كاتب و أدبيا الا اذا كان الادب كله عبثا فى عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيخونا الماتقين يقول : « ان فى أسلوبه حلاوة » ولو أنه قال « نعومة » لكان اقرب الى الصواب ولو قال « انوثة » لاصاب الحز . وهذا كلام يكاد يعده من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الالغاز والاحاجى فلنفسره لفائدة الناشئة ان لم يكن لفائدة ذاك الذى لا نرجو منه خيرا . قال مهيار :

فيارب قلد دمي مقتلى بما نظرت واعف عن قاتلى
هنيئا لحبك - ذات الوشاح . دم ظل فيه بلا عاقل
وحبى ذكرك حتى لثمت مسلكه من فم العاذل

هذا مثال للنعومة - كلام مصقول لين الانحدار تستطيع ان تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصقل فيه اذا نشرته وتأملت متاحشاه الشاعر من الالفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد اذا تدبرته لم تشعر ان وراءه شيئا لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية ما فى الامر ان صاحبه اراد القول فى هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما كان الشاعر قد اعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ الى الاحتيال والصنعة وحسب الافراط فى الرقة يكسب الجمال ويفنى عن الاحساس به فقلب كل شئ وحمل عينه

ذنب النظر الى الحسن ودعا الله ان يبوء المقتول بالقاتل تناهيا في
اللين وذهابا الى اقصى المدى في الطراوة ولا قتل هناك ولا قاتل ولا
دم مطلول بغير عاقل وانما هو التطرى والرخاوة ثم ذهب يقول انه
لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو
من سخافات التطرى ويكفى لادراك مبلغ السخافة ان تتصور مثل
هذا المنظر حادثا واقعا . وامثال هذا كثير في غزل المقلدين والعابثين
لانهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا الى الصقل وضحوا في سبيله
الرجولة والعقل . ومهيار بعد من الفحول او هو على آثارهم ماض
وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الادراك للفرق بين
مذهب العرب في الشعر ومذهب الآريين - او الفرس فقد كانوا
لا يعرفون الا عربا وعجماء . يدل على ذلك قوله يصف شعره :

حلى من المعدن الصريح اذا غش تجار الاشعار ما جلبوا

يشكرها الفرس في مديحك للمعنى وترضى لسانها العرب

فكانه لم يغب عنه عناية العرب باللفظ واكبارهم شيانه وذهاب
غيرهم الى المعنى قبل اللفظ وله ما لا يكاد يدانى في حلاوته وعلوته
كقوله :

اذكرونا ذكرنا عهدكمو رب ذكرى قربت من نوحا

وقوله :

آه على الرقة في خدودها او انها تسرى الى اكبادها

فاذا كان مهيار وهو من علمت يقع في هذا فما ظنك بالتأخرين
والعابثين الذين افتنوا في العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل
للانسان انهم كانوا يتبارون ليروا ايهم اعظم تطليقا للعقل واتيانا
بالمستحيل ونسيانا لاحكام الحياة . اما الحلاوة فتجدها في مثل
قول الشريف الرضى :

انت النعيم لقلبي والعذاب له فما امرك في قلبي واحلاله

وقوله من القصيدة عينها :

عندى رسائل شوق لست اذكرها

لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

وليس يمنعك أن تتذوقها من البيت الاول ذكر المראה فانها هنا اخف ما تكون وليست كل القصيدة من هذه الطبقة ولعل التمثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغربي أجدى وأنفع في تبين المراد ولكننا لا نحب أن يفهم أحد أننا قوم افتننا بالغرب حتى ذهلنا عن محاسن العرب ولا أن يظن بنا الاعلان عن النفس وان كان لا غضاضة في ذلك ما دمنا ندعو الى حق وقولة صدق .

ومرجع هذه الحلاوة الى ما ترك من التنوع في الاطراد والى احساس الشاعر بالذادة والحسن احساسا هو مزيج من الاعجاب والطلب . خذ البيت الاول مثلا « أنت النعيم » وتأمل اطراد العاطفة في مصراعيه وتوازن قوتها في شطريه وكيف انه مع هذا الاطراد والاستواء يفجؤك بالتنوع من حيث لا يصدك . وبريك وقعين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبارة موزونة على قدر الاحساس لا أكثر ولا أقل ولو انه كان قال « أنت النعيم قلبي والجحيم له .. فما أمرك .. الخ » لأحسست التنافر واختلاف القوة في الشطرين ولما استعذبت منه قوله « فما أمرك الخ » بعد لفظة الجحيم . وتأمل في عقب هذا قول المسكين شكرى يصف جميلا ويبالغ في حسنه :

كانما صافكم كيما يحبكمو

يا فتنة الحسن قد جار الهوى فينا

يعنى الله في صدر البيت - فأتك تحس اذ تنتقل من الشطر الاول الى الثاني كأنما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لا اطراد ولا تساوق وكأنما صادف ماء البيت انحدارا مباغتاً وكأنك بين مصراعيه على أرجوحة غير مستوية .

وتدبر بيت الشريف الثاني وانظر تحريه الدقة في العبارة عن مقصوده تحرياً أكسب البيت الاستواء والاطراد وتأمل كيف عبر

بالشوق حيث يدس العابثون والمقلدون اقوى الالفاظ واشدها
من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والنزاع وغيرها مما
لم يكن يعجز الشريف عن حشره في البيت لو كان مثلهم فساد ذوق
وضعف طبع وسليقة .

ولست تأخذ من البيت اكثر من العبارة عن الاعجاب وهو من
أخف مراتب الحب وأولها ولا أكثر من الرغبة المعتدلة لا الجامحة
ومن اشتهاؤه التفضيل اشتهاؤه لا ينبو مع ذلك في زمام الإرادة
فالتناسب تام بين أنواع المعاني والاحساسات المتنوعة التي ضمنها
البيت - من اعجاب واحتشام واشتهاؤه والتشاكل كامل والاستواء
بالغ الفاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبلية وسلامة الذوق وحسن
المعنى في الكناية عنها بأنها رسالة لا تبلغ الا للهم ومراعاة ذلك
وامتناعه عن ذكرها عن بعد .

واذا اردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع
فقارن قصيدة الشريف الرضى التي يقول في مطلعها :

يا ليلة السفح الاعدت ثانية سقى زمانك هطال من الديم
بقصيدة الطفرائي التي احتداه فيها وترسم مواقع اقدامه
وليس يسعنا ايراد القصيدتين ولكننا نجتزئ بذكر البيت من
قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطفرائي مجازاة له . يقول
الشريف :

قبرت منها بلا رقيب ولا حنر
على الذي نام عن ليلى ولم اتم
فياخذ الطفرائي ويخرج صاحبه ان كان لهما وجود :
يا صاحبي اعينساني على كلفى
بمن تناوم عن ليلى ولم اتم
ويقول الشريف يصف ليلته معها :
وامست الريح كالفرى تجاذبنا
على الكتيب فضول الربط واللم

يشى بنا الطيب احسانا وآوة

يفسيننا البرق مجتازا على اضم

فيسطو عليه الطفرائي ويصوغهما في أربعة آيات مرذولة :

وبتنا وبات الصبا وهنا يغازلنا	وفرشنا الرمل وشته يدالديم
والليل يكتم سرى والصبا كلف	بنشر ما كاد تطويه يد الظلم
ياتفحة الريح باتت بين ارحلنا	بالجزع تسلك بين العذر واللم
فهبت طيبا واغرقت الوشاة بنا	ياحبنا انت لو لم تقتدى بهم

ويقول الشريف :

واكنم الصبح عنها وهى غافلة

حتى تكلم عصفور على علم

فيضمه الطفرائي في هذا البيت المنحوس :

وغاب عنا غراب اليبين ليلتنا	فناجب عنه عصيفير على علم
-----------------------------	--------------------------

ويقول الشريف :

يولع الطل بردينا وقد نسمت	رويحة الفجر بين الفصال والسلم
---------------------------	-------------------------------

فيمسحه الطفرائي هكذا :

وأذنتنا بقرب الفجر ناشئة	باتت تحرش بين الفصال والسلم
--------------------------	-----------------------------

ويقول الشريف :

بتنا ضجيعين في ثوبى هوى وتقى	يلفنا الشوق من فرع الى قدم
------------------------------	----------------------------

فيا بى الا ان يعف عفته ويجيء بهذا البيت المنشور السخيف :

ورق لى قلبه القاسى ومكننى	مما اريد فلم آثم ولم الم
---------------------------	--------------------------

ويقول الشريف في غير هذه القصيدة :

انت النعيم لقلبي والعذاب له	فما امرك في قلبي واحلاك
-----------------------------	-------------------------

فلا يرى الطفرائي ان يتركه في قصيدته دون مسخ :

طاب الهوى في الجوى حتى انست به

فهو المראה يطو طعمها بقمي

فيخلط ويحسب الشريف الى هذا قصد . ويقول الشريف :

ولا استجد فؤادى في الزمان هوى

الا ذكرت هوى ايامنا القدم

والذكرى طبيعية ولكن فساد ذوق القلاد الطفرائي يابى له
الوقوف عند حد الطبيعة :

تريد أن أستجد الحب بعدهم والحب وقف على احبابنا القدم
النج النخ

وشتان بين كل بيت ونظيره .

كلام الشريف مستقيم المعنى والاداء وأبيات الطفرائي لا يسيفها
المرء الا بضاء . والفرق بين الكلامين أوضح من أن يحتاج الى جلاء .
ولعل القارئ قد رأى مما أودرنا أن الحلاوة لا تتفق مع العبث
والتكلف ولا مع اضطرار العاطفة ووقدتها .

ولست بواجد شيئا من هذه الحلاوة في كلام المنفلوطى سواء
في ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع
العبارة عنها وقد أسلفنا أن وصف أسلوبه بالنسومة أقرب الى
الصواب ولكنه ليس كل الصواب لأنه متجاوز ذلك ذاهب الى أدنى
منه وليس أدنى من ذلك الا الأنوثة وهى أخط وأضر ما يصيب الادب
ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسيفونها
ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم اياها أن يشجعوه ويفروه بالكد
في إبراز ما ليس أقتل منه للرجولة ولا أعصف .

قال المنفلوطى في مقدمة عبراته :

« الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بئس مثلى أن
يمحو شيئا من يؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم
هذه العبرات عليهم يجدون في بكائى عليهم تمزية وسلى . »

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا
القلب الذى شغل عن مطالب الحياة بالدق عطفًا على المساكين
أمثاله . ولو شاء لقال أن الناس جميعا كذلك أن كان يريد أن يذهب
الى هذا المعنى لأن كل امرئ طالب محروم . ولكن وظيفة المرء في

الحياة ليست أن يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لأن الأصل في الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهي قائمة على ذلك ولا سبيل إليها بدونه ، بل هي تنتهي إذا امتنع وبطل .

وهذا شيء يعرفه كل أحد ويحسه كل حي . وقد فطن اليه الأقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمي على ذلك واثباته في مظاهره ومن آيات هذه الفطنة - فطنة عميقة مستولية على النفس - أنهم قالوا أن في الوجود قوتين متنازعتين أبدا وقوة الشر التي تطفئ بالليل وتجعل في الرعد وتقتل بالصواعق وتبتلى بالجذب والمحل والأوباء والأرزاء والفناء وما يدخل في ذلك ويتفرع منه ، وقوة الخير التي تسح بالفيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجدد بالخصب والحياة إلى آخر هذه المعاني وقد رمز الفرس للأولى وللثانية بأرمر .

ومثل هذا واضح في جميع الأديان وإن تغيرت الأسماء وتبدلت النعوت وما إبليس أن فكرت إلا اسم آخر لاهرمان والأرمر لقوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لها .

بل ذلك ملحوظ في خرافات العجائز وقصصهن حتى لعهدنا هذا وفي أوهام العامة التي تعزو الأمراض إلى فعل الشياطين وفي خوف الأطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير في دبابجه . ولماذا يفرع الفازع من الظلمة ويتهيب القفار والفساب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ اليس هذا اثرا من الاعتقاد الأول بأن هذه مظاهر قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحياة مبنية على المغالبة ولكن هذا الذي يحسه الأطفال والعامة والذي فطن اليه الأقدمون السذج بفرائثهم وفطرتهم السليمة لا يدركه المنفلوطي المسكين الذي يحسب أن ليس له من عمل في الدنيا إلا البكاء على الأشقياء كأنما خلق الرجل أضعف من الدودة الجوالدة في جوف الثرى .

وعسى قائل يقول : ان هذا منه فرط حب للانسانية وهى فضيلة لا يقبلها رذيلة أن صاحبها بالغ وغلا في الأمر لانه انما يفرق في النزع ليبعد المرمى ويجاوز القصد في التصوير ليكون أبلغ في التأثير ويتناهى في الدعوى استندناء للغاية القصوى .

هكذا يصنعون اذا ارادوا التفضيل أو الاعتذار لانفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج الى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لأن الانتصاف منها لا يتأتى الا باستعانة العقل والعلم عليها . ولكن لا بأس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا اذا ترجمناه الى لغة العلم ونظرنا اليه في ضوء الاستقراء الحديث .

ما هى اخلاق المتفلوطى ؟ هى بالفاظه - أو ان جادل فيما ارتضى ان يوصف به من الالفاظ - انقباض عن الناس ووحشة - عفة حتى من مد يده الى أبويه - كرم في الخلق طالما كان سببا في وصول الاذى اليه - حلم يظنه الظان عجزا وضعفا - صمت طويل يحسبه الناظر حيا - ما رؤى يوما من الايام ملما بما يفسد عليه دينه أو مروءته صبر على ما يذهب بلب الحكيم ويطير رشد الحليم (١) مات له طفلان في أسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمة على شدة تهالكه وجدا عليهما - وليس احقر في نظره من المادحين له ولا أصغر في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه - لو أن الناس جميعا اجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا على رأى مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته ليس أبغض اليه من الكذب - يحب حتى العتاب المر والتفريع المؤلم ما دام المتكلم صادقا - يطلب من الناس غير ما يطلب بعضهم من بعض - ان كان في اخلاقه ماخذ ففى هذا الخلق خلق النفرة من

(١) قال لسنج الشاهر النافذ الانسان : من لا يفقد عقله امام بعض الحوادث فليس له عقل يفقده .

الناس والعجز عن احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم - وطنى بنهالك
وجدا فى حب وطنه ويلدى الدمع حزنا عليه . . الخ .

ولا تنسى انه جرىء جراءة معدومة النظر فى التقحم على حياة
الناس بهذه النوعت الغالية وانه محب مفرط الحب للانسانية -
فيلانثروبيست - وان أسرته مشهورة بالتقوى وان ابناءه يموتون
فى غير السن التى يكون فيها الاهمال والجهل سبب الوفاة المباشر
فى الاغلب والاعم .

فكيف تصف هذه الاخلاق ايها القارئ ؟ اما ان تكون مصدقها
فننظر فى دلالتها او مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رايك .

اخلاق نادرة ؟ نعم ليس اندر منها مجتمعة وان انفقت للناس
متفرقة ! ولكن الامر اكبر من ذلك وابعد مدى واعم ق . هاك دلالة
هذه الاخلاق الرائعة النادرة فى نظر الدكتور نسبت قال :

« ولما كانت التقوى فى الاغلب من اعراض الحالة التشنجية وكان
الغرور وكثير من الخصائص البسيطة او المركبة توجد فى حالة غير
عادية من النمو اذا كان الجهاز العصبى غير سليم فليس من المدهش
ان يكون البخل من أعضاء ما يسميه (فيرى) اسرة الامراض
العصبية . وحب الانسانية - فيلانثروبي - نفسه مما يجرى هذا
المجرى وقد كان (هوارد) مصلح السجون جبارا فى بيته وكان له
ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الانانية ايضا وشرح هذه الحقائق
فيما اسلفنا عليه القول على الارادة . وذلك ان بعض مراكز المخ -
واحدا او اكثر - تكون قاصرة عن تلقى المؤثرات او الاجابة عليها
فتسود فى حيز الادراك طوائف معينة من الآراء او تصير الغلبة
لنزعات معينة مستقلة عن الادراك . وهناك قوم - كما يقول المثل
- لا يصغون الى داعى العقل ولا يحسون الا انفسهم ومصالحهم .
وآخرون يبلغ من تضحياتهم بالنفس وانكارهم الذات ان يخرجوا -

بغير مبرر معقول - عن كل متعمهم وكل ما ملكت أيمانهم إلفائدة
جيم انهم مثلا . وكلا الفريقين من مرضى الاعصاب كالعمودين أو
المصابين بالتشنج . ويقال على العموم ان الاعتقادات الحادة القوية
تصاحب الضعف أو المرض أو الاضطراب العصبي وعلى العكس
من ذلك ترى الموفور الصحة متسامحا بالضرورة متعدد جوانب
الرأي » .

فما قول المحتج للمنفلوطى فى هذه الكلمة التى كأنما كتبها صاحبها لما نحن فى صددده وأيها خير فيما يرى لصاحبه ؟ أن تؤمن بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادرة والخلال القريبة فيلزمه حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين فى اعصابهم أم نقول كذب فيما ادعاه لنفسه وأن ما به ليس ايثارا وجبا للانسانية متجاوزا به حدود القصد والاعتدال بل أنوثة يتوخاها فى الكتابة وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدلجىل على التباس ومخادعة لهم واستصغار لأحلامهم واستهانة بعقولهم ؟

لسنا نتشبهت بأحد الحكمين فليختر القارىء لهذا الكاتب
أخفهما وأهونهما فى رأيه فسواء لدينا هذا وذاك والنتيجة بعد
واحدة .

« الأشقياء في الدنيا كثير وليس في استطاعة بائس مثلى أن يمحو
 شيئاً من بؤسهم وشقائهم » .

سوداء ما أشدها وظلمة يأس ما أحلكها واحساس بالعجز المطلق والقصور التام . وما أبعد هذا عن الكتابة الطبيعية المعقولة التي تفشى النفس أحيانا ويكون مردها الى ما يلقاه المرء من الخطوب في حياته أو في علاقاته مع أسرته أو بيئته وأوساطه والتي لا تمنع ان يكون الانسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر الى الأمور صنادق الوزن لا قدرارها . نعم من الطبيعي ان يكتب مثلاً من يحتسب طفلاً له كان يشيم الخير من لمحاته ويأنس الرشد من سماته أو من يرى نفسه منبوذاً من الناس لفقره أو ضعة قومية في أبيه أو من

يعنى بالفشل فى بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هذه السوداء
اليائسة التى تصور لصاحبها الحياة كأنها مستشفى عجرة ودار
أيامى ومفجعين ينقطع للبكاء عليهم - أى تحليل لها من الأحوال التى
تكتنفه هو أو سواء ؟ وإى باعث عليها غير عدم التلاؤم بين المرء
والبيئة ؟

خذ مثلا لذلك مفتاحا وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذاك فتفشل
ولا يخرج الأمر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب فى المفتاح كان
يكون مكسورا أو أن تكون انبويته مسدودة أو أن تكون أسنانه بالية
وأما أن يكون الذنب ذنب القفل كأن يكون لسانه قد سقط فى جوفه
أو أن يكون شئ فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل أو أن يكون
الصدأ عطله وأنت فى كلا الاحتمالين لا تستطيع أن تفتح القفل ولكن
هناك احتمالا ثالثا وهو أن تنحرف بأنبوية المفتاح عن حديدة القفل
أو أن تدبره فيه مقلوبا أو أن لا تبلغ بأسنانه اللسان ولا يكون العيب
فى هذه المرة راجعا الى القفل أو المفتاح بل الى الخطأ فى عملية الفتح .
‘ أهبنى غضبت . فالأمر فى هذه الحالة لا يعدو أحد فرضين :
أن يثير غضبى رجل مثلا بعمل مسيء فإذا كان احساسى مناسباً
لدرجة الإساءة ومتكافئا معها كان ذلك منى طبيعيا ولكن لنفرض أن
الأمر جاوز المعقول وأن الغضب هاجه ما ليس فيه إساءة وهو
الفرض الآخر فنعود الى مثال المفتاح والقفل ونقول اما أن تكون
الظواهر الخداعة أو الانباء الكاذبة قد حملتنى على اعتقاد القصد
الى الإساءة وتعمد الإيذاء فيثير فى نفسى ما يحيط بى مثل ما يثيره
الإيذاء لو كان واقعا ويكون عدم التلاؤم بين الاحساس والعمل راجعا
الى الوسط والعيب عيب القفل - أو يكون العمل فى ذاته غير مقصود
به الا الخير كأن يرتب لك خادمك أوراقك فى غيابك ولكنك لما لقيت
فى يومك من النصب أو لعسر هضم تعانيه تخرج عن طورك وبلغ
غضبك مبالغا لا يتناسب مع الظروف - أى لا يلائمها وفى هذه
الحالة يكون عدم التناسب بين الاحساس والظروف مرجعه الى

علة فيك والعيب عيب المفتاح اذ كان قد هاجك مالا يهيج فاذا أصبحت في اليوم التالي وقد سرى عنك وسكنت نفسك وهذا ثأرك وبدالك تهورك فقد أعدت التوازن بين الاحساس والحادثة ولكن اذا ظل غضبك في الصباح كما كان في المساء وطردت الخادم فان المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب بين الاحساس والحادثة وتصبح عجزا عن اعادة التوازن بينهما يدل على ان « عملية » الموازنة او الملاءمة مضطربة .

وهذان المثالان ينطبقان على عدم التلاؤم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتفاء ذلك راجعا الى علة عضوية او الى ان للبيئة احوالا ليس لها المرء بكفاء او هو يجهلها او لا يعرفها معرفتها وفي كلتا هاتين الحالتين يكون العيب في القفل او المفتاح ولكن اذا كانت البيئة ليس فيها من الاحوال الا ما يستطيع ان يكافحه الرجل العادى وكان المرء قادرا على الوجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا ان يلائم بين نفسه وبينها فان الفشل في هذه الحالة لا يكون مرجعه الى عدم كفاية او عيب في هذا العامل او ذاك بل الى فساد عملية الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد تصحبه ابدا ثلاثة مظاهر : اضطراب الأجهزة العصبية والاضطراب في السلوك والاضطراب في الادراك ويدخل في هذا ما يعتور الفكر والاحساس والشعور بالذات وبالعلاقة المرء بالوسط وهى اشياء على اوضح ما تكون في قصص المنفلوطى كما سترى فيما يلى .

العبرات « قصة البتيم »

وتعود بعد هذا الايضاح الى ما كنا بداناه من الكلام على عبراته
فنقول انها على نوعين : منها طائفة مترجمة عن امثلة الضعفاء
الداهين مذهب التصنع والافراط في الرقة والانونة والباقي موضوع
وهو في كليهما ملقى مستحيل التلفيقات - حتى فيما هو مترجم
منها يابى له ذهنه المنتكس الا ان يغير ويبدل تبديلا كبيرا الدلالة .
وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته في كل قصة تقريبا بينما هو
جالس في مكتبه الذي كانا صار ملتقى كل صوت ولاقط كل نبرة
وموجة اثيرة اذا به يسمع انينا او حنينا او صوتا خافتا او توجعا
او زفيرا او نهيقا او شيئا من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية
فيرى فتى فيما شاءت له تلفيقات اوهامه ومنكرات احلامه - من
العمر ملقى يتوجع على سرير او حصر فيذهب اليه ولا يزال به
حتى يقص عليه امره ويروى له خبره ويكشف له عن مظاهر انوثته
ثم يموت الفتى - وهو ما لا بد منه في كل حكايات المغالوطى فما اعظم
شؤمه على ابطاله - فيفسله ويلفه في الاكفان ويحمله الى قبر يدفنه
فيه وينثر عليه دمة من دمعه التي كانها لها « زر » في تضاعيف
ثيابه بضغط عليه فتتحدر وتسيل وان كان لم يبك على طفليه اللذين
ماتا في اسبوع واحد !!

فبالله ما لهذا الحانوتي الندابة وللادب الذى هو حياة الأمم
وباعت القوة فيها ونافث الحرارة فى عروقها وحافزها الى اجل
المساعى ؟ لقد كان المنفلوطى يستطيع ان يتعظ بمصر ابطاله المخشيين
- ان جاز الجمع بين النعتين - ويموتهم فى شرح الشباب وميعة العمر
وكان فى وسع قرائه ان يعتبروا بهم لولا سقم اذواقهم ومرض
نفوسهم ولكن لكل كاتب قراء على شاكلته منسوجين على منواله
وان اخوف ما نخاف على هذه الامة ان تجد هذه الجرائم ترى
صالحا فى نفوسها فى وقت هى احوج ما تكون فيه الى من يبلر فيها
بدور القوة ويدفعها الى تطلب الحياة العالية .

كتب جيته الشاعر الالماني رواية « احزان فرتر » وهو فى التاسعة
عشرة من عمره اى قبل ان ينضج ويستكمل الرجولة فراجت
واشتهر امرها وانتشر بها الصيت الى كل ركن وذهب بها السمع
فى كل زاوية فى العالم الغربى ونقلت الى جميع اللغات الحية ولكن
واضعها الذى كان حقيقا ان يزهى بهذا النجاح وان يفتتن بما وفقت
اليه باكورة اعمال من الديوع واستفاضة الذكر وان يغريه ذلك
بالمضى فى هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة - ظل الى ان
مات لا يندم على شيء ندمه على وضع هذه الرواية ولا يخجل من
عمل له خجله منها حتى لقد تمنى لو استطاع ان يجمع كل نسخها
من ايدى الملايين من قرائها ليوكل بها النار !!

ولماذا كان يخجل منها ويشعر انها وصمة لرجولته ؟؟ لان فرتر
بطلها انتحر من اجل خيبة فى ميدان لهو وغرام ! والحياة اجل من
ان يقطع المرء جبلها لخيبة امل كائنا ما كان او ان شئت فقل هى
اهون من ان يكبر المرء امر سعودها ونحوسها الى هذا الحد . وان
مما يصم الرجولة ولا شك ان لا يكون صحيح الادراك للامور وان
لا يستطيع ان يلبس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين
الوسط .

فإن تخنت العبرات من هذه الرجولة الضخمة التي تقدر واجب الحياة وتعرف فرائضها ولا تفر منها ؟ رجولة لا تقول في الدنيا اشقياء كثيرون فلأبك عليهم ولا ندب سوء حظهم ونحس طالعمهم ولا نعلمهم الى الناس بل تقول الحياة طلوع ثنايا ومصارعة منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطيء ومصيب وناهض وكاب عائر وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضى حق الحياة عليه ولا يمتلأ دينها بل يؤديه اليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور أن افلح ومعدور أن اخفق

جيته - تلك الصخرة القائمة في لجج الحياة تناطحها كل موجة وتلطمها كل ريح وهى وطيدة لا تلين ولا تساقط على الصدمات والأحوال - هو مثال الرجل الخليق بالحياة ، هو البطل الذى قرت عنده ثورة « كارليل » الهائج فى ميادين الفكر لا يعرف السكون ولا يدوق طعمه الا بالتمنى حتى لم يسعه لما ترجم احدى روايات جيته إلا ان يخضع للجامة ويستفيد لعنائه والا ان يخرج عن طبيعته - ان صح هذا التعبير - وينسى جموحه مع المعانى وركضه فى حلبة متوعدة من الاداء فجاء أسلوبه فيها سلسا كالماء الرقاق المتحدر فى سهل دمت من الأرض .

ولعمري ما أبعد البون بين أدب تعليم الحياة المتدفقة وصحة الادراك وبين كتابة ميتة مملوءة صديدا وبلى شائعا فيها كهذه العبرات والنظرات والسخافات والتلفيقات والمنكرات التى لا تعرف لها مثيلا فى كل عصور الأدب التى مرت بالأمم قاطبة من آرية وسامية !

خذ مثلا لذلك قصة « اليتيم » التى صدر بها عبراته وموضوعها أن فتى فى العشرين من عمره مات أبوه وتركه فقيرا لا يملك شيئا فكفله عمه وأكرمه وأحسن اليه إحسانه الى ابنته التى كانت فى مثل عمر الفتى فشبا عشرينى صفاء وخذنى مودة ووفاء ، ثم ذهب

العم الى جوار ربه بعد أن أوصى زوجته أن تكون للفتى الذى لا اسم له ولا أم - اما كما كان هو له أيا ولكن الزوجة لم تلبث أن تنكرت للفتى فزعمت أنها عزمت أن تزوج ابنتها ترى أن فى بقائها بجانبها ما يريبها عنده خطيبها وأنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا ذلك الجناح الذى يسكنه الفتى من القصر وأمرته أن يتحول الى منزل آخر يختاره لنفسه من بين منازلها تقوم له هى بشأنه وشأن نفقاته فيه فأكبر الفتى ذلك وعظم عليه الأمر وأسودت الدنيا فى عينيه لأنه يحب الفتاة حبا لا يعلم به أحد ولا الفتاة نفسها ، بل ولا هو نفسه الا فى هذه الساعة . فأتسل من البيت ليلا وأكر أن يستشرد ثم سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزل المنفلوطى . ولكنه لم يستطع البقاء فيها ساعة واحدة فرحل رحلة طويلة قضى فيها بضعة أشهر لا يهبط ببلدة حتى تنازعه نفسه الى أخرى ، ثم شعر بسكون فعاد الى الحجرة فلزمها هى ومدرسته ولم يبق من اثر لذلك العهد القديم الا نزوات تعاود قلبه من حين الى حين . ثم ان خادمته فى بيت عمه اهتمت اليه وحملت اليه كتابا من الفتاة تطلب اليه فيه ان يأتى ليودعها قبل موتها ، ولكنها ماتت قبل وصول الكتاب اليه فلحق بها ومات هو الآخر فدفننه المنفلوطى معها تنفيذا لوصيته .

هذا هو موضوع القصة . والآن فلنرجع اليها القارىء الى مثال القفل والمفتاح . ليس فى المفتاح عيب فان الفتى كان صحيح الجسم موفور العافية ليس به شيء من الآفات التى تقعد بالمرء عن ملاسبة الحياة على الوجه الصحيح . فاذا كان الأمر على خلاف ذلك فالذنب للمنفلوطى الذى نسي أن يذكر لنا علله وأوصابه الجسدية . كذلك ليس فى القفل عيب . لان الظروف المحيطة بالفتى والأحوال التى كانت تكتنفه ليس فيها ما يعجز الرجل العادى السليم عن مكافحته ولكى يقتنع القارىء بما نذهب اليه نجاوؤ الاجمال الى التفصيل ، ارادت امرأة عمه أن تزوج ابنتها وهى رغبة طبيعية تحسها

كل أم ولم تكن تعلم أن الفتى يحبها لأنه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك ويدريه ومصادق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطى .

ولا أعلم هل كان ما كت أضمره لابنة عمى فى نفسى ودا وإخاء أو حب وغراما ، ولكنى أعلم أنه ان كان حبا كان فقد بلا أمل أو رجاء فما قلت لها يوما اننى أحبها لأنى كنت أضن بها وهى ابنة عمى ورفيقة صباى ان اكون أول فاتح لهذا الجرح الاليم فى قلبها ، ولا قدرت فى نفسى يوما من الأيام ان أصل أسباب حياتى بأسباب حياتها - ولا حاولت فى ساعة من الساعات أن أتسقط منها ما يطمع فى مثله المحبوب ولا فكرت يوما أن أستشف من وراء نظراتها خبيثة نفسها لا علم أى المنزلتين أنزلها من قلبها منزلة الأخ فاقنع منها بذلك أو منزلة الحبيب فاستعين بارادتها على ارادة أبويها » .

فما ذنب امرأة عمه اذا كان قد شاء أن لا يتكلم أو يقدر أو يتسقط أو يستشف ما يستشفه كل محب ويتسقطه ويقدره ويقوله ؟ وهو يعلم أن لا لوم عليها فى جهلها ما لو كانت علمته لكان لها شأن آخر معه ، ولا يعقل أن يحسب المرء أن الناس اعرف منه بخبيثة نفسه .

اذن فليس فى رغبة امرأة عمه أن تزوج ابنتها شئ يستدعى منه ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرذم والانسلال تحت الدجى طلبها اليه أن يتحول الى منزل لها غير الذى يسكنه على أن تقوم له بنفقائه فيه حرصا على الفتاة أن يربها شئ من وجوده الى جانبها عند خطيبها . فأنه موقف معقول واحساس طبيعى . ولا شك أن فى هذا الطلب غضاظة . ولكن قليلا من التفكير بعد ليلة أو ليلتين كان خليقا أن يجعله يسفها . فلماذا انسل وآثر الاستشراء والرحيل فى البلاد ، ثم لماذا بعد أن سكنت نفسه بلغ من وقع الخبر الذى حملته الخادمة اليه أن مات ! اليس الواضح البين أنه عجز عن الملاءمة بين نفسه وبين هذه الأحوال والظروف عجزا ليس مرده لا الى آفة فى جسمه ولا الى الظروف !

وهذا بعد ليس في شيء من الحب الطبيعي الذي يحس حامله
بالغاية منه احساسا واضحا ويدركه اتم ادراك ، والذي لا يعتا
يتطلب التعارف الجثمانى الكفيل بحفظ النوع . لا كهذا المسكين الذي
لا يدري أهو يحب ابنة عمه حب الاخ لاخته ام حب الرجل للمرأة .
ولا يقدر في نفسه أن يصل اسباب حياته باسباب حياتها ولا يحاول
أن يعرف ما عندها له أو يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام
لا يرضى من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم
ولا يروى من تعلموا من هذه القصص أن يعدوا الهوى العذرى الذي
لا وجود له في هذه الدنيا الدنية مثلا ليس أعلى منه للحياة - واللين
الدائب والنحول والضنى من دلائل سمو النفس - والانقياد للمرأة
كالكرة في يدها والقعود تحت حكم نظراتها وإيماءاتها وحركات
حاجبيها وشفتيها ويدها ورجليها من علامات الرجولة وآيات
الفتوة والبطولة دع عنك الاضطرابات البهلوانية من جسمية وعقلية
والزفريات والاناث والدموع وتقليب الأكف والذهول والنحول
والاصفرار والاطراق ونكت الأرض والكلام الذي لا يقوله ولا يفهمه
هاقل والنظرات التاردة البلهاء في المجالس والمحافل وسهر الليل
ورعى النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل اطراف الأصابع
للأصباح والخيالات وتحميل الرياح أنواع السلامة والتحيات
الطيبات المباركات ...

لا . لا يرضى هؤلاء كلامنا وان كان الحقيقة لانهم لا يطلعون على
الحياة الا من منظار المنكرات التي تصفها لهم هذه الروايات
ولا يفكرون أو يحسون أو يعملون الا على مثال أشخاصها ولا غرابة
في ذلك فان من لا تؤهله تجاربه أو معارفه لتصحيح خطأ الروائي
لا يسهه الا أن يسلم بصدقه ويستمد رايه في الحياة من كتابته
ويتخذ أشخاصه قدوة تحتذى وتقلد . وهي نتيجة يعلمها من له
أقل الامام بعلم النفس وتأثير الإيحاء لا سيما في الضعفاء والشبان
والنساء ومرضى الأعصاب .

واذكر على سبيل التمثيل لتأثير هذه القصص المنحوسة انى
اعرف رجلا بلغ من استيلاء « سنكلر » وضروب احتياله على نفسه
وهواه فى صدر ايامه ان ظل سنين وليس له غاية يطلبها سوى ان
يكون على رأس فرقة من « البوليس » السرى يطارد المجرمين . ذلك
لان هذه القصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب
فى نضوج الاحساسات الطبيعية فى نفوس الشبان واخصها الحب
بتنبئها مركز التوليد قبل الاوان وقبل ان يكون الباعث على الحب
هو النضوج الجنسى فى الفرد .

أسلوب المنفلوطى

أما أسلوب المنفلوطى فى هذه القصة وفى سواها فأسلوب رجل لا يبالى من أى مدخل دخل على القارئ ما دام يقدّر أن سيصل منه إليه ولا أى بلاء يهديه فى احتياله ويقعّمه عليه وإذا كان يعرف من نفسه التلفيق والتصنع فهو لا يزال يعالج الاقتناع والتأثير بضروب من التأكيد والفلو والتفصيل وغير ذلك مما ليس أدل منه على الكلب والتزوير لما وقع فى وهمه من أنه يكسب الكلام قوة وشدة لا يفيدهما أن يلقى ساذجا ويدعه غفلا وأول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعه بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه أنه من المحسنات اللازمة للصقل وإن العبارات بدونه تكون مبتورة ، والجمل لا يجرى فيها النفس إلى آخره دون توقف واعتراض . ومع أن قصة اليتيم فى تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فإن فيها أكثر من ثلاثين مفعولا مطلقا ليس من بينها واحد لا يكون الأسلوب أسلس وأطيع بدونه . لكنه ذهب إلى المبالغة فى كل شيء وآلى أن يجاوز كل حد معقول طلبا للتأثير من طريق الإفحاش فى التأكيد فلم يكن له بد من هذا المفعول المطلق الذى لا يكاد يمر به القارئ فى أى كتاب يفتح من كتب الأدب .

ومعلوم أن الكلام لا قيمة له من أجل حروفه فإن الألفاظ كلها سواء من حيث هى الفاظ ، وإنما قيمته ونصاحته وبلاغته وتأثيره تكون من التأليف الذى تقع به المزية فى معناه لا . . أجل جرسه

وهدهاء ، والا لكان ينبغي أن لا يكون للجملة من النثر أو البيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك أن الالفاظ ليست الا واسطة للاداء فلا بد أن يكون وراءها شيء ، وأن المرء يرتب المعاني أولا في نفسه ثم يحدو على ترتيبها الالفاظ وأن كل زيادة في اللفظ لا تفيد زيادة مطلوبة في المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هذيان يطلبه من أخذ عن نفسه ، وغيب عن عقله ، وأبلغ من ضلال الرأي أن راح يحسب أن تأليف الالفاظ تأليفا طبيعيا مطردا خاليا من العكس والقلب منزها عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده الزينة والتأثير . وينسى المسكين أن كان كلمة يستطيع القارئ أن يسقطها بدون خسارة في المعنى أو تعويق لتصدر الاحساسات أو افقار لفناها - كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فان العالم اغنى في باب الأدب من أن يحتمل هذا الحشو ويصير عليه وليس شيء أحق بأن يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب اضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشأن والحال لم يحيه من المزايا غير حبك الاداء ، ولكن هذا كلام لا يفهمه المنفلوطى لان اللغة عنده ليست الا زينة يعرضها وحلى يخيل بها لا اداة لنقل معنى أو تصوير احساس أو رسم فكرة . ومن أين له أن ينزل اللغة هذه المنزلة وهو لا معنى في صدره ولا فكرة في ذهنه .

وهذه امثلة للمفعول المطلق في كناية المنفلوطى وكلها لا ضرورة اليها ولا داعي الا من الرغبة في تأكيد الغلو الذى يتطلبه من يحمل نفسه على التفتيق والتصنع أو ما يجرى هذا المجرى من الأغراض الأخرى .

١ - وقلت لابد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس

قريحة معذبة تدوب بين اضلاعه (ذوبا) .

٢ - فيتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض .

- ٣ - ثم لم ازل اراه أو منظوريا على نفسه في فرائسه ين
(أنين) الوالهة التكلى .
- ٤ - واتمنى لو استطعت أن اداخله (مداخلة) الصديق
الصديقة .
- ٥ - وقد بلغ الأمر (مبلغ) الجد .
- ٦ - وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجاً) شديدا .
- ٧ - فشعرت برأسه يلتهب (التهاباً) .
- ٨ - وإذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه يذنه (موجاً) -
يصف نحوه .
- ٩ - فاستفاق قليلا ونظر الى (نظرة) عذبة .
- ١٠ - فتنهّد طويلا ونظر الى (نظرة) دامعة .
- ١١ - أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك .
- ١٢ - فأنزلى من نفسه (منزلة) لم ينزلها أحد من قبلى .
- ١٣ - ١٥ - فعنى بى (عنايته) بها وأرسلنا الى المدرسة فى يوم
واحد فانست بها (أنس) الأخ باخته وأحببتها (حباً)
شديدا .
- ١٦ - ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها (عقداً) لا يحله الا ريب
المنون .
- ١٧ - فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح فى كأسها .
- ١٨ - ثم أنسلت من المنزل (انسلا) من حيث لا يشعر أحد .
- ١٩ - وهكذا فارقت المنزل ... (فراق) آدم جنته .
- ٢٠ - فرحلت (رحلة) طويلة .
- ٢١ - هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم
له مكانا ثم دارت بى الأرض الفضاء - يعنى غرقت -
(دورة) سقطت على اثرها فى مكانى .

- ٢٢ - فحزنت عليها (حزن) الثاكل على ولدها .
 ٢٣ - وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت
 ان كبده قد ارفضت .
 ٢٤ - وان الضربة التى اصابته قد سحقته (سحقاً) .
 ٢٥ - ٢٦ - اشعر براسى يحترق (احترافاً) وبقلبى يدوب
 (ذوبا) .
 ٢٧ - تم انتفض (انتفاضة) خرجت نفسه فيها الخ .

وقد عددنا له الى الآن ٥٧٢ مفعولا مطلقا ولا ندرى الى اى رقم
 يرتفع العدد اذا استقصينا وانما حملنا على تجشيم انفسنا هذا
 الحساب غرابة هذا الكلف منه بصيغة المفعول المطلق . ولنعرف هل
 الشبان واحد فى كل كتابه ام هو اتفاق ومصادفة فى هذه القصة
 وحدها فاذا به قد استعمل هذه الصيغة أكثر مما استعملها العرب
 جميعا !

ولعل القارئ لاحظ فيما أوردنا من الأمثلة كثرة النعوت
 والاحوال كقوله « خرجت منه - يعنى المنزل - شريدا طريدا حائرا
 ملتاغا » وقوله : « تركنى فقيرا معدما لا املك من متاع الدنيا شيئا »
 وقوله وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس « قريحة معذبة »
 وقد يعلم القارئ او لا يعلم ان هذا الاسراف فى النعوت من دلائل
 الضعف وفقر الذهن لان الكاتب انما يرصها واحدا بعد واحد وفى
 مرجوه ان يوافق واحد منها محله وأن يقع فى مكانه ولكن المطبوع
 يعرف ماذا يأخذ وما يلقي وينبذ وانما كان هذا الاكثار من الصفات
 من علامات الوهن لان الكاتب الضعيف لا يستطيع ان يتحرى الدقة
 اذ كان لا يدري اى الرموز اللفظية اكفل بالعبارة النابعة عن المعنى
 المراد فهو من أجل هذا يستعمل اللغة جزافا ويكيل الألفاظ بلا
 حساب مستعينا على الاختيار بالارتباط الغامض بين الألفاظ فى
 ذاكرته وبرنين الأصداء المتقطعة للأصوات المألوفة . وهناك أمر آخر

وهو أن الترادف في اللغة من الأكاذيب الشائعة إذ ليس ثم في الحقيقة لفظان يؤديان معنى واحداً على وجه الضبط . وما من مترادفين يزعم الزاعمون أنهما سواء في المدلول ألا وبينهما مقدار من الاختلاف قل أو كثر ، فإذا ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعاني متشابهة المدلول كان لنا أن نسأل أيها يعني على التحقيق وإي مدلولاتها المتفاوتة يقصد إليه ويريد منها في فهم المراد أو تكوين الصورة أن نعتمد عليه ؟ لأن السرد لا يستقر به معنى على حد ولا يعين على التصور إجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن في هذا مثله في التصوير والرسم فكما أن المعول فيهما ليس على كثرة الألوان بل على أصابتها مواضعها ووقوعها مواقعها قلت أو كثرت وصحة التأليف بينها كذلك في الكتابة ليست العبارة بتعدد النعوت ولكن بمبلغ إبانيتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

أترى سيسمعا السخفاء وأشياهم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحية أن هذا ليس سوى غنى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأي حماسة وضلال لا يتعلقون ؟ ولكن ههنا أصلاً يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق إليه وإن كان على هذا لا يحتاج إلا إلى أيسر فكرة وأدنى نظرة وهو أن اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا شيء في ذاته ولا معنى له في نفسه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف ويضم الألفاظ بعضها إلى بعض كاللون في ذاته لا يفيدك صورة ولا يعطيك شيئاً إلا بعد أن يتلف مع سواء ويجرى كل إلى أخيه مجراه وليس لغير ذلك مساع في العقل أو مجاز إلى الفكر وقيام في النفوس فلا كتابة حتى يكون معنى هو المرجى لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفي جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئة وحسنة أو قبيحة سخيفة ، والا فإن أحداً لا يعجزه أن يعتمد إلى معجم أو كتاب مترادف فيأخذ منه ويسرد وليست كثرة الألفاظ المستعملة المسوقة من شأنها أن تدل على كثرة الاطلاع وسعة الحظيرة وطول الباع وإنما التأليف والتركيب والافتنان بهما والقدرة عليهما هي آية هذه السعة والطول والكثرة

فلا تجعل بالك الى الالفاظ اذا شئت أن تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ، ولكن اجعله الى طريقة تأليفه الكلام فان رأيت يدور منها في حلقة لا يكاد يمدوها حتى يكر اليها فاعلم انه ضيق المضطرب محدود المجال ، ضئيل الحال ، والى بعد ذلك الفاظه من اى حالق شئت .

وكذلك المنفلوطى لا يكاد يفوتك أن تقرأ له هذا التركيب :
 « فعدت به حزينا منكسرا وما على وجه الارض أحد اذل منى ولا أشقى » - « ومارئى مثل يومها يوم كان اكبر باكية وباكيا » أو هذا التأليف « فما هو ان مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوها غير الوجوه » - « وما هي الا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته » ونحن فأنما نمثل ولا نستقصى ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المصال لوجد له مخرجا من هذه الدوائر - والالفاظ كالحجارة في محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من امرها في راحة وانما الكتابة مجسها الحصافة والتشيت في انتقاء الالفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تأليفها والمزاوجة بينها .

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطى ذاهب مذهب التخنت في كتابته وملق مستحيل التليقات ، وانه لا يزال يعالج التأثير بالتطرى والرخاوة في العاطفة المتكلفة والاحساس المصطنع وبالغلو والتاكيد في صوغ الكلام وتصوير المسألة فان بنا بعد هذا أن ننظر كيف يسوق القصة اى في الاسلوب بمعنى الطريقة التى يجرى عليها في تناول الموضوع وعرضه .

وقد ألف الناس لطول عهدهم بالمقلدين أن ينظروا الى الاسلوب من حيث هو تأليف للكلام على معانى النحو ونحن نريد أن نلقى على هذه القردة درساً فيما يفيدده صحة النظر واعتدال ميزان العقل وسعة أفق الفكر . . وانا لنعلم انه لن يفيدهم الا الحسرة على ماضاعوا من العمر وجنوا من سوء والخبت في هذه الامة التى تكبت بهم على

قدر سدر أمينهم وضلال افهامهم ، ولكننا ماقصدنا قط الى امالهم
 هم فيه وان كانت الخزائم حاضرة بل تبصير من له طبع من
 المشي اذا قدحته وري وهدى من له قلب اذا اريته راى .

ونعهد لما نريد تبينه بمثل من التصوير محسوس فان هنا قوما
 لا يدركون الشيء او يصدمهم فنقول ان ههنا في ناحية من الطريق
 شرطيا واقفا يرقب الحركة ويلاحظ العادين والرائحين والراكبين
 والراجلين ويمنع الزحام ويقتاد المتنزين الى الشر الى اى هو تابع
 له من « الاقسام » تراه وتزن التبعة التى عليه والسلطان الذى فى
 يديه وتقيس النصب الذى ينبغى ان يعاينه الى القدرة اللازمة التى
 لا ثوابه فتعطف عليه فى محتته وترثى له فى وقفته وتصوره وانث
 ناظر اليه من جانب الجد الذى لا هزل فيه وفى ضوء الواجب مكابدا
 اوامره ونواهيته - هذا وربما ذهبت تعتبره مرة اخرى من الجانب
 المضحك فى هيئته وفى تراخى همته وبطء حركته او عدم التلاؤم
 والتناسب فى بزمته ووفاء قامته وهخاذله فى مشيته وتشاوبه واستناده
 الى الجدران وذهول نظراته او حواراه مع الباعة وتأنيه الى غايته
 وتقطيبه جبينه وهو يدفع فى جذبته او تواريه فى الدروب ووراء
 العمد اذا جد الجد بالطعام فى « نقطته » الى آخر ذلك . ثم تصوره
 صورة تركبه فيها بالدعابة فانت قد تناولت موضوعه من جهتين
 متباينتين اذ كنت قد نظرت الى امره وحاله نظرتين مختلفتين كنت
 فى الاولى جادا وفى الاخرى هازلا وجعلت الصورة فى كل من المرتين
 معيرة عن اعتبارك اياه ناطقة بالفرض منها فوجهة النظر الى
 الموضوع والطريقة التى تتحررها لفائتك هى ما نسميه اسلوب
 التناول ولا شبهة فى أن المرء ينظر الى الامور من جهات معينة - من
 ناحية الجد او الهزل او المألوفية او الشلوذ او الجلال او الحقارة
 وليس يعنينا من اى ناحية عالج المسألة وانما الذى يعنينا مقدار ما
 فى سعيه من صدق السريرة وصحة الادراك ودرجة النجاح ومبلغ
 التغلب على الصعوبات . ونقول مبلغ التغلب على الصعوبات لان

القصص لا تظهر قدرته في المواقف الهادئة السلسة وانما تستبين وتتضح حيث تكون اشخاصه تحت ضغط العواطف القوية وفي المواقف التي تتطلب ادق النظر واشق التمييز واصح العبارة .

كيف تناول المنفلوطي موضوعه وما هي الفكرة العامة التي نظر بها فيه ، وبماذا أعد لها وكشف عنها وهل اللغة التي استعملها صادقة وهل السلوك الذي عزاه الى اشخاصه مما هو معهود في الادميين كما نعرفهم وما مبلغ اسرافه أو قصده وما مقدار خطئه وتخليطه أو اصابته وسداده .

عسى قائل يقول : انك تضعه في ميزان لم يصبه لنفسه ولا كان في باله ولا جرى له هو وامثاله في خاطر . وردنا على هذا المحتج ان الادب لا شأن له بهذا الاهمال أو الجهل والاعتداد فيه الا بالصلاحيه للحياة . وهي هي ميزانها ابدا واحد لا رفق فيه ولا هوادة فان خفتم على صاحبكم ان تشيل به الكفة فاخرجوا به من هذا الميدان وادهبوا محمودين مشكورين على النكوص . فان ابيتم الا ان تعدوه كاتباً اديباً فلا مسموح عن قذفه في هذا الاتون الحامي لنعرف من اى معدن هو . وانتم بعد خلقاء ان ترضوا لصاحبكم ما ترضى لانفسنا مختارين مرتاحين فانا نعيش في عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير ، وشك محيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيات عصر تعتصر فيه العقول ويستنفذ في حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوائلنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطة زاخر الاعباب يضطرب بنا منته في عشي ليلنا المتجاوبة بصيحات التمسك والظلم الى المعرفة والحنين الى النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب في اثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه يحسبون ان الادب والفلسفة - او النظر المخلص الصحيح ان شئت - لا يتفقان وان الفائض على الاسرار الطالب للحقائق لا يكون اديباً وان الاديب لا يكون معبدا ورائداً وان ما وصل الله من الخصائص .

والفة يجب ان يقطعها الانسان ويمادى بينه ولكن عهد الظواهر والزبد والقشور وقد سقط في هوة الابد وجاء زمننا الشاذى بعلاقة الطبيعة بنفس الادمى الراكض بمداركه من ميدان الى ميدان ، والمرغ وراء السماء سماء وبعد الابد ابادا ، المصيخ الى صوت اعتلاج موج الزمن المتكسر على صخور ذلك « العالم الآخر » .

ونعود الى صاحبكم المنفلوطى - وما أهول هذا الانحدار - فنقول ان فيما اسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شخصها لكفاية وفوق الكفاية . ولقد كان حسب سوانا في غير هذا البادان يشير بطرف القلم الى ما فصلناه ولكننا وطنا النفس على الجسد ورضناها على السكون الى ما تكلفنا اياه حدانة العهد بالادب الحى .

بحسب المنفلوطى ان تكلف التفصيل في المحسوسات مظنة الاجادة وفاته - وانى له ان يفهم هذا - انه لا يعجز احدا ان يقول لك هل فلان هذا الذى تراه طويل ام قصير ونحيل ام بدين وهل في يده كتاب ام عصا ونائم هو ام جالس؟! وانما محك القدرة في تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة لا طواهر الاشياء وقشورها وفي رسم الانفعالات والحركات النفسية واغتلاج الخواجج الذهنية وماهو بسبيل ذلك .

اما تفصيل المنفلوطى فلا خير فيه بل الخير في اجتنانه وتحاشيه وليذكر القارئ ان هذا المسكين يروى عن نفسه ويحدث بما يدعى انه كان شاهده من غرفة مكتبه المظلة على غرفة الطالب - وهو بطل القصة - في البيت المقابل له في الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن انه قد استحق المنزلة الاولى بين شيوخ الرواية .

« كنت اراه من نافذة غرفة مكتبى وكانت مظلة على بعض نوافذ غرفته فارى امامى فتى (شاحب) الوجه منقبضا جالسا الى مصباح منير في احدى زوايا الغرفة (ينظر في كتاب او يكتب في دفتر او يستظهر قطعة او يعيد درسا) فكيف استطاع هذا التمييز بين

الاستظهار والاعادة وكيف رأى شحوب لون الوجه مع هذا البعد ؟
ولكن هناك ما هو ادهى :

« عدت الى منزلى منذ ايام بعد منتصف ليلة قرة من ليالى الشتاء فدخلت غرفة مكتبى لبعض الشئون فأشرفت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك الى مصباحه وقد اكب بوجه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت انه لما لم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبث بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب الى فراشه وسقطت به فى فى مكانه فما رمت مكانى حتى رفع راسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها الى بعض ثم لم يلبث ان عاد الى نفسه » .

وهى لاتفيد ولا يمكن ان تفيد شيئا سوى انه يريد ان يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارئ ثم هل تدرى انه احس انه موشك ان يقول شيئا مستحيلا ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين النافذتين عرض الشارع وهو مهما ضاق وحتى لو كان الوقت وقت الظيرة المتقدمة الملتمة لا يسمح بان يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة او جولان العبرة فى الجفن وقد شعر المنفلوطى باستحالة ذلك ولكنه لمصابه لم يجد ما يخرج منه مما اوقع نفسه فيه من تكلف المحال غير ان يقول ان الفتى رفع راسه ! كان هذا يكفى لمكينه من ناصية المستحيل !

وانت ايها القارئ هل قنعت ام تزيدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل فخذ ثالثة الاثافي : ذهب المنفلوطى اليه لانه سمع « فى جوف الغرفة انه ضعيفة مستطيلة » ووضع يده عليه فعلم ان الفتى محموم .

« فامررت نظرى على جسمه فاذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه واذا قميص فضفاض (واسع) من الجلد يموج فيه بدنه

موجاً فامرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من اشربة الحمى
فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلاً »

ابنا حاجة الى التعليق على هذا الهراء ؟ لقد سمعنا بمن لولا
محادثة اياك لم تره وبالجسم لو تؤكدت عليه لانهدم فاما القميص
من الجلد يوج فيه البدن فلم تكن نتوقع أن يسمعه أحد الا في
مستشفى المجاذيب ! ومع كل هذا التحول احتاج صاحبكم
المنفلوطى أن يمر نظره على جسم الفتى .

ولست أحب أن انفص على القارئ كتابنا بكثرة ما أورد من
هذه التليفقات المنكرة ولكنى أسأله الصبر على هذه الجملة أيضاً
— دعا المنفلوطى الطبيب فجلس المريض وهمس في أذنه أن العليل
مشرف على الخطر — ولا عجب أن يصير الى هذا المصير الخبيث
بعد أن جرعه المنفلوطى — شراب حماه — ثم دفع اليه المنفلوطى
الأجر وأحضر الدواء .

« وقضيت بجانب المريض ليلة ذاهلة النجم بعيدة ما بين
الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكي عليه أخرى حتى انبثق نور
الفجر » .

والعادة ان الاشربة يسقاها المريض بعد فترات (زمنية)
يحددها الطبيب ولكن الظاهر ان طبيب المنفلوطى امره ان يعطيه
الدواء بعد كل ... بكاء !

ومع ذلك فاذا لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفلوطى مات
له طفلان في اسبوع واحد « فسكن لهذا الحادث (سكوناً) لم
تخالطه زفرة ولم تمازحه عبرة على فرط حبه لهما وتهالكه وجدا
عليهما » ؟؟؟ وكذلك كان سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس الى
الناس يحادثهم حتى كان المرزوء سواه .

وبعد أن استفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب
المنفلوطى عليه وابلا من الأسئلة وهو يعلم انه في سياق الموت

(فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رانى فقال انت هنا ؟
قلت نعم : ارجو ان تكون احسن حالا من ذى قبل . قال ارجو ان
اكون كذلك . قلت : هل تأذن لى يا سيدى ان اسألك من انت وما
مقامك وحدك فى هذا المكان وهل انت غريب عن هذا البلد او انت
من اهليه وهل تشكو داء ظاهرا (ياللعلى) اوهما باطنا وهل لك
ان تحدثنى بشأئك وتفضى الى بهمك كما يفضى الصديق الى صديقه
فقد أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك ؟

ومن الغريب ان الفتى لم ويصفه ماذا كان يخشى المسكين لو
فعل وهو ميت لا محالة - بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذى
انتهى بين يدي هذا الحانوتى بعد ان فرغ من الحديث الذى يملأ
احد عشر صفحة من تسع عشرة فما أطول نفسه فى ساعة الموت !
وما اخلق هذا الأدب الميت بأن يروى عن المجتصرين ؟ وما أحق
أهل الفتى ان يطالبوا المنفلوطى بدمه ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

شوقي في الميزان

٢

مرضنا (شوقي) في الميزان لأول مرة فارتج به ارتجاجا عنيفا وأيقظه من غفلة كان فيها سادرا وما هو الا ان حط به ثم شال حتى تمنى ان يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ويقول لخلطائه وسماسته : « هبوني لست بالشاعر اليس لي فخر آخر اذل به ؟ »

تقول اجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول

اما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الاثر ما كنا نقدره لاربعة اجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره في اوانه - اسرعوا الى اقتنائه حتى نفدت نسخه في اسبوع او اقل ونادرا ما كانت تقصر النسخة منه على قارئ واحد وتوالى الطلب له في المدينة والاقاليم فلم نر بدا من التمويل على اعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها الى الادب . فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضي ذوى العقول المتزنة والقطر المستقيمة والاطلاع المجدى وموافقهم عليه مرضية ورايهم فيه جميل . ومنهم اذكىء الشبان الدارسون او السالكون على الجادة وكثير بينهم المشايخون بل المهملون . وطائفة اخرى حظها من السماع اكثر من حظها من الاطلاع وجدناها الى الموافقة المشفوعة

بالدهش اميلَ منها الى المنافرة والمنت وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطا ويتهم ناقدته بالانحراف فهو يتلمس المعاذير ويدرب لسانه على التغيير ، وفي هؤلاء امل لا بضيع ولا سيما بعد هداة الدهشة وتطامن المفاجأة لان نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة ان اثلام الحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة الحصباء ما يشق تسويته أو يعسر عند اليأس منه نبذه . واما التذمر فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره ونعنى فريقى القراء - وبالحرى المتحدثين - الذين لم نوجه اليهم خطابا . وهما فريق المعجبين على الاشاعة الذين يطربون لما يطرب له الناس فرارا من تهمة الجهل والفرازة ويفرمون بالشعر كما يفرم بعضهم بجمع العاديات والمخطوطات أو بتربية الديكة ويفار على صيت شاعره كما يفار على اللعبة التى فتن بها . ومن أظرف ما يروى عن أحدهم أنه سمع جملة فى نقد رثاء شوقى لعثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة التى اقام لها الازهار والرياحين وسؤال عما كان من القطن بأصنافه فى تلك المناحة فظن - صان الله لشوقى اعجابه - اننا انما انكرنا سكوته عن القطن وأردنا منه أن يذكره فقال متعجبا : وهل كان القطن (طالعا) وقتئذ فيذكره فى القصيدة ؟؟

والفريق الآخر من الساخطين هم أولئك الذين عرفوا بانهم شركاء شوقى فى (العادات الخصوصية والمناذات الليلية) فما رأينا أحرا من سخطهم ولا أكثر تصنعا لأسبابه وتمحلا لعله ، وهذه آخر اشارة نلمح اليهم بها .

ولا نحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد ولا نستبعد رجوعه الى الحق متى وضح له وجهه . أول الانتقادين وأشبههما بالحق اننا اخترنا أو هن قصائد شوقى

واكثرها مغامر . وليس هذا صحيحا فاننا انما راعينا الحدائق
 فيما اخترناه من قصائده وهى لا تقل فى اعتقادنا واعتقاده عن
 اجود شعره صياغة ومعنى . ولكن الحقيقة - كما قلنا فى الجزء
 الأول - هى أن قراء اليوم غيرهم بالأمس فليس يرضيهم ما كان
 فوق الرضى قبل عشرين سنة . ونحن نذكر أصحاب هذا القول
 باننا انما كنا نصوب الانتقاد الى شاعرية شوقى وذوقه وروح
 قصائده ومنهج أدبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما يؤثر فيه
 العجلة والتأني ، واذا كان الطعن فى الشاعرية والعاهة فى الذوق
 والاعوجاج فى المنهج فاختلف القصائد كيفما كان الموضوع والاسلوب
 لا يقدم ولا يؤخر فى الحكم على الشاعر . ولعلمهم بعد الاطلاع على
 هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث فى شعر شوقى سواسية .

أما ثانى الاعتقادين فهو أننا أغلظنا العصا لشوقى وشددنا عليه
 النكير . ولهؤلاء نقول أننا لا نهدم خطأ مؤسسا على البرهان فننقضه
 بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس التراكية وما
 أحوج البرهان فى هذه الى الشدة وما أقل ما يفنى فيه اللين
 والهوادة .

ومما استصعبوه أننا قرنا معانيه بمعانى الشحاذين . فيا عجباً !!
 كأننا نحن نهينه اذا قابلنا ادعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف
 عنها وهو لا يهين نفسه ويهين ضمير الأمة حين يجمع المحافل المشهودة
 لتكريم الشحاذة فى أشنع ضروبها !! وأى حق على الناس لمن لا
 يعرف لنفسه ولا للناس حقاً؟؟ فنحن لا نرى للرجل فى انفسنا قدرا
 يتجافى به عن أخشن عبارات الزجر والتفريع وهذا ما اعلناه فى
 توطئة الجزء الاول ولا نريد العدول عنه فى هذا الجزء ولا فى الأجزاء
 التالية فمن كان يفقه ما نقول ولم يفضب لكرامة الفكر تداس هوانا
 ولضمير الأمة يلطم على وجهه عيانا فليفضب علينا ما شاء فانه
 لا يعرف كيف يفضب .

وكاننا بزمرة شوقى يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التي بغضب لها الناس في آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا تؤكد لهم انها حقيقة تحس وتلمس وان كانت لا تؤكل ، وانها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الاول عسى أن يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الاديب الجدير بشرف الادب، وما ترخص له المحاكم في التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه .

كان ولا يزال في حاضر الزمان ، لا في سالف العصر والأوان . وفي الجزر البريطانية لا في جزائر واق الواق ومعاهد السحرة والجان ، انسى يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص - لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « اذا » يحض بها الهمم ويذكر في النفوس الضرم . شاعت شركة جناتوزان أن تقتبس منها أبياتا لترويج غذاء مشهور من أغذيتها التي تجهزها لمداواة الاعصاب فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها . فماذا كان من أمر ذلك الرجل المدعو رديارد كبلنج الذي قلنا انه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا انه قاضاها الى احدى محاكم لندن ، وزعموا أن وكيله - ويدعى المستر هيوز - وقف فطلب الى القضاء منع الشركة من امتنان الأبيات بهذا الاستعمال ، وقال فيما قال . « انه لمن أصعب الاشياء أن يتخيل الانسان أمرا أشد ايلذاء لنفس المؤلف من ابتذال كلامه بادماجه على هذه الصورة في صياح الباعة على سلمهم . انها لاهانة لا تقل من السباب المقذع لكل من لامست نفسه أقل مسحة من الكرامة الأدبية » .

قالوا : فلما نطق القاضي بحكمه علن الشاعر وقال : « لا عجب ان ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة - وعندي

ان هذا الاقتباس لا يدخل في حق الاستشهاد الذي يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١» وحكم بتغريم الشركة أربعين شلنا تمويضا للاهانة التي الحقنها بالشاعر (١) .

فهذه اسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكها بروايتها عن تلك العنقاء التي يسمونها الكرامة الأدبية ، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الاساطير في غير قصور الف ليلة حريون ان لا يقفوا بها عند حد التفككة .

لمثل ذلك الابتذال يفضب اديب الغربيين ويقول محاميهم انه أشد ما يتخيل ايذاء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم أنف ان يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعا وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، ان صح ان التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لان أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للفيرة الأدبية واريحية الفنون اقل معنى ولا يفهمون من جمال الشعر الا انه « اسرى مروءة الدنى وأدنى مروءة السرى » كما كان يقال في عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لو لا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة الا اعجوبة مبهمة ولغزا مقلقا ، لان هذا الذي أنف كبلنج ان يصنع بشعره على غيره على غير علم منه قد صنعه شوقي بشعره مختارا وتعمد ان يكون اعلانا لسلعة معروضة ؟ ألم ينظم أبياتا يروج بها « ريشة صادق » ونشرها في الصحف ؟ بل فقد قال ادامة الله للدكاكين والماتم والافراح والسهرات :

لل ريشة صادق من ريشة تزدى طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة في المشارق كلها حسنا وفكتها من التقييد

(١) جريدة الديلى كرنكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

وتهدى لحسن الخط كل مقصر	وتهدى في الاحسان كل مجيد
اغلى لدى الكتاب ان ظفروا بها	من ريشة الالماس عند الغيد
والذفوف الطرس ان خطرت به	من ريشة الليثي فوق العود
وتكاد تحيي مؤنسا بصريها	وتقول أيام ابن مقلة عودي
لو لم يكن في الأمر الا انها	مصرية لاستوجبت تمجيدى

وفي هذه الايات اوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة -
 شعر لا يتأبه صاحبه ان ينزل به منزلة الاعلانات التجارية ، وعبقريه
 دراجة لبانت ان اخيلته وابتكاراته هي ومبالغات الباعة وتزييفات
 الدلائل وتحلية البضاعة على حد سواء . وان من يروج ريشة
 كتابة بانها « اغلى من ريشة الالماس » لقريب نسب ممن ينادى في
 قوارع الطرقات « يا جواهر يا غنب » والذي يدل على ريشة عربية
 بانها « حسنت الكتابة في المشرق كلها » انما يرشف من البحر
 الذي تعرف منه « الفرص الحقيقية واحسن بضاعة في العالم كله »
 و « ولم لم يكن في الأمر الا انها مصرية » شبيهة بكل ما ينسب
 الى مصر والمصريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى ان
 الباعة لا يغلطون غلطة شوقي فيقولون وهم يعرضون الريشة
 ويمدحونها بالجدة والسلاسة ان لها صريرا يكاد يحيى الاموات !!
 وبعد فان المرء ليزدري العقل الانساني نفسه ان قيل ان هؤلاء
 الصماليك الفكريين الذين تفوم عليهم الامارة الشوقية من ذوى
 مزاياء وحمة امانته في الارض . فالادباء في الامم هم عنوان حياتها
 الروحية والفكرية ومعيار لما تحسه من مفاخر الحياة وقوى
 الطبيعة ومعانى الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور
 السماوى الذى يفيضه الله من الايات والفنون جمالا ونبلا . ويوحيه
 كمالاتا وفضلا ، وهم اذا ذكرت الفصاحة في الامم صفحتها الواضحة
 وطبقته المتأخرة الراجعة ، فقل لى رعاك الله أى هذه الطغمة أميرا
 كان او مأمورا تفخر الأمة الحية بأنه صورة ما في نفوسها من زينة

وجمال ومظهر ، ما في رؤسها من فكر وخيال ، وترجمان ما يجول
بوجداناتها وتعمر به صدورها من قسط في الوجود ، وتراث مقسم بين
ابناء آدم . وان المرء ليزهى بآدميته حين يلقي بنفسه في بحار الآداب
الفريية ، وتجيش اعماق ضميره بتدافع تياراتها ، وتعارض مهاها
ومتجهاتها وتجاوب اصداؤها واصواتها - ابواب للكتابة متنوعة ،
ومهايع متسعة ، وفنون مبتدعة . ونحل ومذاهب ، ومدارس
ومشارب . والحياة بين هذه الأفكار المشرقة معروضة للنظر في كل
شية من شياتها ، محسوسة في كل حطره من خطراتها ، متكررة
متضاعفة ، شاكّة موقنة ، جادة ساخرة ، ناقمة راضية . شهوانية
متنطسة . فياضة غير بكية ، موصولة يناييعها مروية ، والنفس
تحس من احدى نواحي ذلك العالم الرحيب ما لا تحسه من سواها .
فكانها نفوس متفرقة لانفس واحدة جائمة .

كذلك عالمهم . ثم تلتفت الى الادب الذي يدعيه اولئك الاميون
المعارفون بالكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة . العامة
المتطفلون على موائد الخاصة فتري عجا . ترى هذا عاكفا على
رقمته ولعلمه وذاك مدبرا الى ربربه وسربه ، ومادحا وهاجبا
ومحسوبا على آل فلان ومتمسحا بآل عمران . نفوس ضاوية وعقول
خاوية واخيلة في التراب ثاوية . او كانما هي الانتقال الى القرار
هاوية . فصدق احدى اتنتين : اما أن ادبا تسمعه من هؤلاء اشرف
ما تنطق به النفس ساعة تسو الى اسمى معارج الانسانية . او
انهم ليسوا من ذاك وانما هم محترفو حرفة ليس من آلتها نباعة
الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور .

وان من الجناية على مصر والشين لها ان يسمى هؤلاء النفر بعد
اليوم ابداعها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة
فنية يعنو ذووها لكل وبش يخطر له ان يسخرهم لقضاء غرض من
اغراضه او يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات
ارزاقهم بمرض لعابنهم وخيولهم ؟؟ ووارحمتا « الكلتور المصري »

يساق دعائمه لتمثيل الروايات وأنشاد الأشعار بأيسر مما يساق
المولوية لتشجيع الجنائز وتلاوة الأذكار !!

ولقد كان مما قيل في المدينة الحديثة أن أقلام أدبائها أحدى
الحواجز التى تصونها أن تترد الى العصور المظلمة وانها عصمة لها
من أن تستبد بعقولها عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو
طائفة ، وانها سلاح من أسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ويحسب
حسابه كل طاغية - فأى عصمة لمصر فى أقلام هؤلاء المخططين
والنظاميين وهم بهذه الحال من الخور والمداجة ؟؟ إلا أن العصا فى
يد الأكار لانفع لمدينة مصر وأصون لسمعتها من كل قلم تشرعه
تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون أنفسهم من الكرامة فلا احجاف
بهم ، ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطاة القلم المنصب عليهم . ولقد
وجب بل آن أن يفهم الأدب على غير ما يفهمونه وان ينحوا عن مكان
لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

وكانما شاء القدر أن يبدد حبال شوقى وطلاسمه كلها فى
بضعة أسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم فى مصر علىة
القوم يتنون عليه فيفترون بتشجيعهم له ويروعههم اعجابهم به
ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنا وخطرا ، حتى جاءت لجنة الأغاني
فأماطت الستر عما وراء ذلك ، وهتكت للناس حقيقة اعجاب هؤلاء
العلية اذا أعجبوا وقيمة استحسانهم اذا استحسنا . وانها إن هى
إلا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة الإدارة

شمرت اللجنة عن ساعديها وأغمضت أمام المتفرجين عينيها كما
يصنع المشعوذ الهندى اذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها فى الجراب
فاخرجت نشيد شوقى وهى تقسم انها لا تعرفه وجعلت تلوح به

للملاكي يشاركها في الابتهاج به فيللمهارة !! ولكنها لسوء حظ شوقي
كانت تنقصها خفة اليد !!

ولا حاجة بنا الى الاستنتاج ولا الى العود لما حدث في الجلسة
مما اظهر اطلاع أكثر الأعضاء على النشيد قبل التثامها اكتفاء
بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الاول .

فالقراء يذكرون ان اللجنة بمن كان فيها من المقنين والعوادين -
وهم أعضاؤها الإخصائيون - اختارت نشيد شوقي وأعلنت اسباب
اختيارها له في منشورها وهي انها « انتهت في مناقشتها الى أنه
اكفياها واوفاهها بالفرض وأجمعها للمزايا التي ينبغي ان تتسق
لنشيد قومي » وكذلك علمنا ان حكمها لم يصدر اعتباطا ، ولا كان
عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء ان الاستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك في
الصحف يتقد النشيد ويقرر أنه لا يصلح للتلحين بانفسم الاناشيد
القومية . ثم انهم يذكرون ان فريقا من أعضاء نادي الموسيقى من
الذين كانوا في لجنة الاغاني اذاعوا بعقب ذلك في الصحف ان الاستاذ
اتما يتكلم براهيه ، ومعنى هذا انهم كانوا لا يزالون الى ذلك الحين
مصرين على حكم اللجنة مجدين في ابعاد كل مظنة في صلاحية
« النشيد الوطني المختار » للتلحين .

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبني على المناقشة وهذا الاصرار
الصادر من روية ؟ .

ثم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدأت هي امامهم وأقبلوا
يسألونها وهي محتدمة تصفيقا : ما هذا الذي تصفقون له ؟؟ نعم لم
يعد يكفي في هذه الامور ان يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون
وراه . وكثر اللفظ بتحيزها واجتراء الموسيقيين على الافضاء
يأراهم في تلحين النشيد فسقط سقوطا تاما وكان صاحبه اول

المهزمين . فقد اخذ يزعم انه انما نظمه ليغنيه جماعة عكاشة في مسرحهم كانما النشيد مثنى يقدمين الى ديوان لجنة الاغانى !! وخشيت اللجنة أن يكون حكم الامة عليه حكما قاضيا على معرفتها وانصافها واخلاصها فيادر اعضاؤها الاخصائيون ييلفون الصحف ان النشيد يصلح للتلحين ولكن لا كنشيد قومى !! وقيل بلسان رئيسها انهم لم يشترطوا ذلك في تلحينه . اذن فماذا اشترطتم ؟؟ اتراكم كنتم تقدمون للامة « طقطوقة » تفنيها على المعازف والآلات ؟ وآين ذهبت تلك المزايا التى اتسقت « للنشيد الوطنى المختار » ؟؟

كذلك تهافت حكم لجنة الاغانى بيدها وانكشف طلسم كان من ابهر طلاسـم الشهرة الجوفاء لعيون الدهماء ، ونعنى به طلسم الاسماء الخلابة وهم الالقاب الجذابة وعندنا أن لجنة هذا مبلغ غيرتها على مهمتها لن يرجى منها صلاح للاغانى ولا لسواها ولكنها اذا كانت تخرج من العدم لتؤب اليه بعد أن تكون قد ابطلت وهم العامة في امثالها فتلك مهمة طيبة تستحق من اجلها نعمة هذا الوجود القصير .

على انها مهمة بنفسها على هذه اللجنة فقد شورك فيها مشاركة لم تدع لها فضلا كبيرا فلو لم تقيضها الحوادث لاطهار قيمة التحبيل والاطراء من ذوى الالقاب والاسماء لتكفل بذلك محفل آخر اقيم فى شهر ديسمبر الماضى وهذه حكايته نرويها ولا نعقب عليها .

قال المقطم فى عدد يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ذلك الشهرة قد كان يوم الجمعة الماضى ميعاد القاء القصيدة الحسينية التى نظمها حضرة الشاعر الفاضل السيد محمد عبد الله القضرى فى الحفلة التى اقيمت تكريما له برئاسة حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسن بدار الجمعية الاسلامية بقصر النزعة بشبرا فعا وافت الساعة التاسعة صباحا حتى اقبل المدعوون من علماء وكبراء وادباء واعيان فازدحم بهم المكان ثم اقبل نائب الامير محمد

انتهى ما نقلناه من المقطع . فليتأمل القارئ وليتصور اسم شوقي مجردا من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلى بها وليستدل منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر ..

وتم مثل آخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنتنا مثلها في انصافها وفي الاخلاص للفن الذي تخدمه وتنشيط المواهب الفتية التي تنهض اليه لولا انها آثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة المثلى . ففي فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات (أكاديمية كوتكور) يحكم في كل سنة بجائزة قدرها اثني عشر ألف فرنك للسابق من الادباء في باب من ابواب التأليف ، فأصاب جائزة الستة

المنصرمة فتى اسمه ارنست بيروشون لرواية قصصية الفها .
أفيدرى القارىء من هذا ارنست بيروشون ؟

نقلت الأنباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم
الفرنسى يسأل عن شأنه فاذا المسئول والسائل فى العلم به سواء .
راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فالفوها خلوا من كل
إشارة إليه أو الى اسم قريب منه . فترجعوا النبأ متبوعا فيه اسمه
بعلامة استفهام . ومضت الأيام ونسينا خبره حتى جاء البريد
قلقت نظرى عنوان فى احدى صفحه هذه ترجمته « خير روايات
العام . يؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الاكاديمية الفرنسية » (١)
فتصفحت الجملة فاذا به صاحبنا بيروشون واذا هو مجهول هناك
كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونيكل فى باريس « وكان
بيروشون ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، مجهولا الى يوم أمس جهلا
تاما وان كان قد طبع فى الأقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص
.. ولم يكن احد من أعضاء المجمع يعرفه إلا أن أحدهم قرأ قصته
القدمة اتفاقا فاعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الادباء
النابيين بين طلاب الجائزة يوم أمس ولكن فاز استاذ القرية المتواضع
دونهم بمشعل النصر » .

فيا قوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب .
لكل لجانهم تعدل فى احكامها هذا العدل وتحبى كل ملكة سالحة
للحياة وهم لا ياتمون بها مغمضين ولا يسلمون لها خاضعين ، فكيف
لو انها كانت كلجنتنا هذه المباركة : لجنة لا تحسن غير الجمالة ولا
تحسن ان تجمال الا بان ترضى فردا لتتقضى على أمة كاملة بالمقم
والافقار ! ان فى ذلك لوعظة .

(١) جريدة الديلى كرونيكل عدد ١٢ ديسمبر ١٩٢٠ .

وخاصة القول اننا عرفنا رأى القراء فى عملنا فقسمناهم الى فريقين . فاما الذين يعجبون بشوقى لغير سبب معقول يفتى الى شعره فقد اسخطناهم ولا نسال الله ان يخفف سخطهم . واما الذين يرجعون الى الاسباب فقد وثقنا منهم بالموازرة وكان اقلهم موافقة من ارجأ الحكم لنفسه حتى يرى . واننا لنعلم انه يرى ما يقنعه .

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : ان رأى الاولين يمثله كتاب ورد اليها غفلا من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته :
« خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه »

وجوابنا لهذا وامثاله : « صدقتم ولا هو بحاجة اليكم » .

ويمثل رأى الآخرين بيت لقينا به اديب مشهور فقال : ايه يا فلان ، اليك بيتا يسير مسير الامثال :

شوقى تولاه عباس فاظهره واليوم يخمله فى الناس عباس

وجوابنا له : بل انه عصر يخمل عصرا ولاغية وهم تخفتها صبيحة حق . وانا لعلى الحق صامدون .

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سمسرة شوقي : ما ترى في رثائه لمصطفى كامل ؟
انتقده ؟ قلت وماذا عساي أن أنتقد أن لم انتقد الهراء والزيف
والشتات ؟ قال ان القصيدة آيته . قلت لقد هديتني هداك الله
فما كنت أظنها آية لأحد من العالمين وما حسببتها الا زلة أسقطته
فيها « مغالبة الشجون لخطره » أو داهية خانة فيها امكانه الذي
ما فتىء يخونه كما قال منها :

ماذا دهاني يوم بنت فعقني فيك القريض وخانني امكاني

وما دهاه الا العجز والفهاة والخرج . دهرته اولاً فاجبل
وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها في اربعين يوماً ثم زاد كثيراً من
أبياتها وغير وبدل فيها . ثم دهرته ثانياً فجرى فيها على عادته من
التلفيق والعقم والزغل الموه . فأما وقد علمت أنها الآية التي بها
تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده ، والمعجزة التي يستنصر بها دعائه
فبآيته فلندحض رسالته وفي معقله الحصين فلنكشف وهنه
ونفضح مطاعنه ، وانها لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل واى معقل
ولكنها آية السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل اخوى
من ذلك وأضعف ، وأضال في الضئولة وأسخف ، أراحه الله من
شعره بما أراح من أقلام نقاده فانه علم الله لم يزعم لهم بديهة وأن
كان يزعم بديهته في صباح ومساء ، ولا كد لهم خاطراً وان كان

خاطره منه في وصب وشقاء . ولقد فات أصحابنا سمسرة شوقى
ان خلافنا معهم لم يكن خلافا على درجات الاجادة وخطوات السبق
فتتقارب كلما اجاد شاعرهم في رأيهم او خيب آمالهم واخلف
ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ثم على ادائه
وطبقته فربما كانت ارفع القصائد عندهم درجة اخسها عندنا معدنا
وربما طربوا كل الطرب من حيث نعزف كل العزوف . كالمسحور
كلما ازداد استحسانا لما هو فيه كان أبعد عن حالة الصحو والصواب
وكالاعجمي كلما أمن في فصاحته وبيانه استفلق على مسامع
الاعراب . وهذا هو الواقع في ما أخذناه وناخذه على شعر شوقى
وهو بخاصة شائنا في الحكم على قصيدته هذه التي رأينا بعض
المفتونين يجلبها عن الانتقاد ويعجب من ان تعاب ، وهى لو يفقه من
القصائد التي يصاب منها المذهب العتيق في مقاتله والشواهد التي
يبحث عنها لابرار ماخذه . وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب
فنبين مواقعها منها حتى يكون لمن قصر النظر على قشورها رأى غير
رأيه الاول فيها .

فالعيوب المعنوية التي يكثر وقوع شوقى وأضرابه فيها عديدة
مختلفة الشيات والمداخل ، ولكن أشهرها وأقربها الى الظهور
وأجمعها لأغلطهم عيوب أربعة وهى بالايجاز : التفكك والاحالة
والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر - وهذه العيوب هى التي
صيرتهم أبعد عن الشعر الحقيقي الرفيع المترجم عن النفس
الانسانية في اصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الزنجى
عن المدنية من صور الأبسطة والسجاجيد كما يقول ماركولى عن
نفائس الصور الفنية : ولكل من العيوب الأتفة أثر ظاهر في هذه
القصيدة قد لا تجده في غيرها من القصائد المزوية أو دقيقا عن
فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر هذه القصيدة بهذا المسبار ان من
نقائص الشعر ما لا يمنع أن يأمح له رواء معجب يستهوى البسطاء
بل ربما زادته جمالا في الظاهر كالحلى المزيطة فانها في الغالب أجمل

من كبريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة
غاليه .

(١) التفكك

فاما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات
متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه
بالوحدة المعنوية الصحيحة إذ كانت الفصائد ذات الأوزان والقوافي
المتشابهة أكبر من أن تحصى فإذا اعتبرنا التشابه في الأعراب
وأحرف القافية وحدة معنوية جاز أذن أن ننقل البيت من قصيدة
إلى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو ما لا يجوز .
ولتوفية البيان نقول أن القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل
فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه
والصورة بأجزائها والحن الموسيقى بأنغامه بحيث إذا اختلف الوضع
أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة
الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته
ولا يغنى عنه غيره في موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم
عن الكف أو القلب عن المعدة . أو هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه
مكانها وفائدتها وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون
الهمج المتأبددين فانك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز وأقداره في تنسيق
عقودهم وحليهم ولا ينظمونه جزافا إلا حيث تنزل بهم عمالة
الوحتية إلى حضيضها الأدنى ، وليس دون ذلك غاية في الجهالة
ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية في الشعر فلم تجدها
فاعلم أنه الفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد أو شعور كامل الحياة
بل هو كامشاج الجنين المخرج بعضها شبيه ببعض أو كأجزاء
العلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف
وأجهزة ، وكلما استفل الشيء في مرتبة الخلق صعب التمييز بين
أجزائه . فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها في اللون والتركيب

صالحة لأن تحل في أى مكان من البنية التى هى فيها . فإذا ارتقيت الى النبات الفيت للورق شكلا خلاف شكل الجذوع وللألياف وظيفه غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين أتمه فى أشرف المخلوقات وأحسنها تركيبا وتقويما . وهى سنة تتمشى فى أجناس الناس كما تتمشى فى أنواع المخلوقات ومصادق ذلك ما نشاهده من تقارب الاقوام المتأخرة فى السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعا على الناظر وهى حقيقة فطنت اليها قبائل البدو بالبداهة ولسها البحترى فى هجوه لمعشر ينعمهم بالهوان والضعة ويقول فيهم :

وبنو الهجيم قبيلة منحوسة حص اللحي متشابهو الالوان
لو يسمعون بأكلة او شربة بعمان أصبح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة تراها تتفاوت اقدارا وملامح وبدوات واطوارا حتى ليوشك ان يكون من المستحيل اتفاق اثنين فى هندام الجسم وهيئته وفى مواهب الدهن ونزعتة . وتقترب مما نحن بصدده فنقول انك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال فى الادب الفيت تشابها فى الاسلوب والموضوع والمشرّب وتمائلا فى روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم القصائد بعناوين وأسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من أن الأسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات، ورايتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر اعضائها فيقولون افخر بيت واغزل بيت واشجع بيت وهذا بيت القصيد واسطة العقد كان الأبيات فى القصيدة حبات عقد تشتري كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها وهذا ادل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين ابيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكره وجفاف السيفه فكانما القريحة التى تنظم هذا النظم وبصات نور متقطعة لا كوكب صلده متصل الأشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة،

أو كأنما هي ميدان قتال فيه ألف عين وألف ذراع وألف جمجمة ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة .

واذ كان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عاليه سافله أو وسطه في قمته ، لا كالبنا المقسم الذي ينبئك النظر اليه عن هندسته وسكانه ومزايه .

وهاه كومة الرمل التي يسميها شوقي قصيدة في رثاء مصطفى كامل نسأل من يشاء أن يضعها على أي وضع فهل يراها تعود الا كومة رمل كما كانت ؟ وهل فيها من البناء الا احقاف خلت من هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية ينقطع اطرادها أو يختلف مجراها . وتقريراً لذلك نأتي هنا على القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيدها على ترتيب آخر يتعدجد الابتعاد عن الترتيب الأول ليقراها القارئ المرتاب ويلمس الفرق بين ما يصح أن يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على فضاء نضيعه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها الا أنها كما نرجو لا تضيع عبثاً - قال شوقي أصلحه الله :

- ١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في ماتم والشدائي
- ٢ يا خادم الاسلام اجر مجاهد في الله من خلد ومن رضوان
- ٣ لما نعت الى الحجاز مشى الانسى في الزائرين وروع الحرمان
- ٤ السكة الكبرى حيال رباها منكوسة الاعلام والقضببان
- ٥ لم تألها عند الشدائد خدمة في الله والمختار والسلطان
- ٦ يا ليت مكة والمدينة فازتا في المحظين بصوتك الرنان
- ٧ ليرى الاواخر يوم ذاك ويسمعوا ما غاب عن قس وعن سحجان

- ٨ جار التراب وأنت أكرم راحل
 ماذا لقيت من الوجود الفاني
 ٩ أبكى صباك ولا عاتب من جنى هذا عليه كرامة للجاني
 ١٠ يتساءلون أبا السلال قضيت أم
 بالقلب أم هل مت بالسسرطان
 ١١ الله يشهد أن موتك بالحجا
 والجسد والاقدام والعرفان
 ١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فانت البني
 ١٣ بالله فتش عن فؤادك في الثرى هل فيه آمال لنا واماني
 ١٤ وجدانك الحي المقيم على المدى ولرب حي ميت الوجدان
 ١٥ الناس جار في الحياة لغاية ومفصل يجري بغير عنان
 ١٦ والخلد في الدنيا وليس بهين عليا المناصب لم تتح لجبان
 ١٧ فلو أن رسل الله قد جبنوا لما
 ماتوا على دين ولا ايمنان
 ١٨ المجد والشرف الرفيع صحيفة
 جمعت لها الاخلاق كالعنوان
 ١٩ واحب من طسول الحياة بذلة
 قصر يريك تقاصر الاقصران
 ٢٠ دقائق قلب المرء قائمة له ان الحياة دقائق وثوان
 ٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
 فالذكر للانسان عمر ثن
 ٢٢ للمرء في الدنيا وجم شئونها ماشاء من ربح ومن خسران
 ٢٣ فهي الفضاء لراغب متطلع وهي المضيق لمؤثر السلوان
 ٢٤ الناس غاد في الشقاء ورائح يشقى له الرحاء وهو الهاني
 ٢٥ ومنعم لم يلق الا لذة في طيها شجن من الاشجان
 ٢٦ فاصبر على نعم الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان
 ٢٧ ياتاهر الغدوات والروحوات والخطرات والأسرار والاعلان

- ٢٨ هل قام قبلك في المدائن فاتحا غاز بغير مهند وسنان
 ٢٩ يدعو الى العلم الشريف وعنده ان العلوم دعائم العمران
 ٣٠ لغوك في علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
 ٣١ ما احمر من خجل ولا من ريبة لكنما يبكي بدمع قان
 ٣٢ يزجون نهشك في السناء وفي السنى
 فكانهما في نهشك القمران
 ٣٣ وكأنه نعش الحسين بكريلا يختال بين بكى وبين حنان
 ٣٤ في ذمة الله الكريم وبره ما ضم من عرف ومن احسان
 ٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة
 وجلالك المصدق يلتقيان
 ٣٦ سقت لمنظرك الجيوب عقائل
 وبكتك بالدمع الهتون غوان
 ٣٧ والخلق حولك خاشعون كمهدم
 اذ ينصتون لخطبة وبيان
 ٣٨ يتساءلون باى قلب ترتقى بعد المنابر ام باى لسان
 ٣٩ فلو ان اوطانا تصور هيكلنا دفنوك بين جوانح الاوطان
 ٤٠ او كان يحمل في الجوانح ميت حملوك في الاسماع والاجفان
 ٤١ او صيغ من غرر الفضائل والعلی
 كفن لبست احاسن الاكفان
 ٤٢ او كان للذكر الكريم بقية
 لم تات بعد رثيت في القرآن
 ٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محقق
 والداء ملء معالم الجثمان
 ٤٤ يبغي ويطفى والطبيب مضلل
 فنظت وساعات الرحيمة بران

- ٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها
 دمع تعالج كتمه وتملى
 ٤٦ تملى وتكتب والمشغل جملة
 ويداك فى القسطاس ترتجفان
 ٤٧ فهشت لى حتى كانك عاتى
 وأنا الذى هـد السقام كيانى
 ٤٨ ورايت كيف تموت آساد الشرى
 وعرفت كيف مصارع الشجعان
 ٤٩ ووجدت فى ذاك الخيال عزائمها
 ما للمنسون بدكهن يدان
 ٥٠ وجعلت تسالنى الرناء فهاكه من آدمى وسرائرى وجنانى
 ٥١ لولا مغالبة الشجون لحاطرى لنظمت فىك يتيمة الأزمان
 ٥٢ وأنا الذى أرثى الشموس اذا هوت
 فتعود سيرتها من الدوران
 ٥٣ قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
 وتجل فوق النـسـيرات مكانى
 ٥٤ ماذا دهانى يوم بنت فققنى
 فىك القريض وخائنى امكانى
 ٥٥ هـون عليك فلا شـمـات بميت
 ان المنيعة غاية الانسان
 ٥٦ من للحمود بميتة بلفتها
 عزت على كسرى انوشروان
 ٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها
 فهل استرحت ام استراح الشانى
 ٥٨ يا صب مصر ويا شهيد غرامها
 هذا ترى مصر فنسم بامان

- ٥٩ اخلع على مصر شبابك عاليا
والبس شباب الحور والولدان
٦٠ فلعل مصرا من شبابك ترتدى
مجدا تتيه به على البلدان
٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهرمان
٦٢ علمت شبان المدائن والقري
كيف الحياة تكون في الشبان
٦٣ مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
قبر ابر على عظامك حان
٦٤ اقسمت انك في التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

كذلك انتظمت لشوقي مرثاة في مصطفى كامل وسماها قصيدة
لأنها لم تأب ان تستقر في قرطاس واحد ، ولقد كان أخرى بها أن
تسمى أربعة وستين بيتا منظومة في كل شيء أو في لا شيء . فاعتبرها
أيها القارئ على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر أربعة
وستين بيتا لم تزد ولم تنقص ولم تخسر حسنة كانت لها بل لعلها
ربحت وعادت احسن نسقا واقرب نظما - قال شوقي أيضا :

- ١ المشرقان عليك ينتحبان
قاصصيهما في ماتم والسداتي
١٤ وجدانك الحي المقيم على المدى
ولرب حي ميت الوجسدان
٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للانسان عمر ثان
٦٤ اقسمت انك في التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

- ٢٧ يا طاهر الفدوات والروحان والخط
 سرات والاسرار والاعلان
 ٩ ابكى صباك ولا اعاب من جنى
 هنا عليك كرامة للجنانى
 ١٩ واحب من طول الحياة بذلة
 قصر يريك تقاصر الاقصران
 ٥٦ من للحسود بميتة بلغتها
 عزت على كسبرى انوشروان
 ٣٦ شقت لمنظرك الجيوب عقائل
 وبكتك بالدمع الهتون غوان
 ٥٥ هون عليك فلا شمات بميت
 ان النية غاية الانسان
 ٢٠ دقات قلب المرء قاتلة له
 ان الحياة دقائق وثوان
 ١٣ بالله فتش عن فؤادك فى الثرى
 هل فيه آمال لنا وامانى
 ٦٠ فلعل مصرا من شبابك ترتدى
 مجدا تتيه به على البلدان
 ٤٢ ولقد نظرتك والردى بك محقق
 والباء ملء معالم الجثمان
 ٤٤ يبغى ويطفى والطبيب مضلل
 قنط وساعات الرجيل دوان
 ٤٩ ووجدت فى ذاك الخيال عزائما
 ما للمنون بدكهن يمدان
 ٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته
 بعض المضياء تحرك الهرمان
 ٤٦ تملى وتكتب والمشاعل جمة
 ويداك فى القرطاس ترتجفان

- ٥٤ { ونواظر العواد عنك أمالها
دمع تمالج كنمه وتعاني
- ٥٧ { فهشت لي حتى كانك عائدي
وانا الذي هد السقام كياني
٥٥. وجعلت تسبالي الرثاء فهاكه
من آدمي وسرايري وجنساني
- ٥٨ { ورايت كيف يموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان
- ٥٤ ماذا دهاني يوم بنت فمقني
فيك القريض وخاني امكاني
- ٥٢ وانا الذي ارثي الشموس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران
- ٥٢ قد كنت تهتف في الوري بقصائدي
وتجمل فوق النيرات مكاني
- ٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطري
لنظمت فيك يتيمة الازمان
- * * *
- ٥٨ يا صلب مصر ويا شهيد غرامها
هنا نرى مصر فنم باملن
- ٦٣ مصر الاسيفة ريفها وصعيدها
قبر ابرر على عظامك حان
- ٣٤ في ذمة الله الكريم وبيره
ما ضم من عرف ومن احسان
- ٤١ لو صيغ من غور الفضائل والعلی
كفن لبست احاسن الاكفان
- ٤٠ او كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الاسماع والاجفان

- ٤٢ و لو ان اوطانا تصور هيكلًا
دفنوك بين جوانح الأوطان
- ٤٢ او كان للذكر الحكيم بقية
لم تات بعد رثيت في القرآن
- ٢ يا خادم الاسلام اجر مجاهد
في الله من خلد ومن رضوان
- ٦ ياليت مكة والمدينة فازتا
في المحفلين بصوتك الرنان
- ٧ ليرى الأواخر يومذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سحجان
- ٣ لا نعت الى الحجاز مشى الاسى
في الزائرين وروع الحـرمان
- ٤ السكة الكبرى حيال رباهما
منكوسة الاعلام والقضبـان
- * * *
- ٨ جار التراب وانت اكرم راحل
ماذا لقيت من الوجسود الغلى
- ٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها
فهل استرحت ام استراح الشائى
- ١٠ يتساءلون ابالسلال قضيت ام
بالقلب ام هـل مت بالسرطان
- ١١ الله يشهد ان موتك بالحجى
والجسد والاقدام والعرفان
- ١٨ المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الاخلاق كالعنوان
- ١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم
في هذه الدنيا فانت البانى

- ٢٨ هل قام قبلك في المداين فاتحا
فاز بفخر مهند وسنن
- ٢٠ يدعو الى العلم الشريف وعنده
ان المعلوم دعائم العمران
- ٢٢ علمت شبان المداين والقري
كيف الحياة تكون في الشبان
- ١٦ والخلد في الدنيا وليس بهين
عليها المناصب لم تتج لجبان
- ٢٣ فهي الفضلاء لراغب متطلع
وهي المضيق لمؤثر السلوان
- ١٧ ولو ان رسول الله قد جينوا
لما ماتوا على دين ولا ايمان
- ٣٠ لفسوك في علم البلاد منكسا
جزع الهلال على فتي الفتيان
- ٢١ ما احمر من خجل ولا من رية
لكنما يبكي بدمع فان
- ٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة
وجلالك المصدق يلتقيان
- ٢٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنى
فكانما في نعشك القميران
- ٢٣ وكانه نعش الحسين بكر بلا
يختال بين بكى وبين حسان
- ٢٧ والخلق حولك خاشعون كعدهم
اذ ينصتون لخطبة وبيان
- ٢٨ يتسائلون باى قلب ترتقى
بعد المنابر ام باى لسان
- ٥٩ اخلع على مصر شبلك حاليا
والبس شباب الحور والولدان

- ٥ لم تألها عند الشدائد خدمة
في الله والمختار والسلطان
- ١٥ الناس جار في الحياة لفاية
ومفضل يجرى بغير عنسان
- ٢٥ ومنعم لم يلقى إلا لـ
في طيها شجن من الاشجان
- ٢٢ للمرء في الدنيا وجم شئونها
ما شاء من ربح ومن خسران
- ٢٤ والناس غاد في الشقاء ورائح
يشقى له الرحماء وهو الهاني
- ٢٦ فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سسيان
- فانظر ايها الفارء الى هذه المراثاة هل ترى بينها وبين سابقتها
من تفاوت ؟ على اننا قد تناولنا الايات عفوا كما بدرت لنا ولم نحتر
الاقصاء في الترتيب . ولو اننا غيرنا بعض الضمائر التى تعلق الاسم
على الاسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التى تصل
الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناهما لم يكبد يجتمع بيت من
القصيدة على بيت ، وانما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال
القارئ نفسه : هل قرأ فى الشعر أشد تفككا منها ؟ فعلى حسب
الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقى وهل هى نبعث
من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل
الوهاد والنجاد او تقطرات من عقل ناضب ينبض بالقطرة بعد القطرة
بخلع الضرس وبخلع النفس فتأتى كالرشاش لا يتولد منه الا الوحل
واليبس ؟
- وقبل ان نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية
ننبه من يستنبهم عليه الامر الى اننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الاقسية
المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وانما نريد ان يشع
الخطر فى القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كما اسلفنا
بالاشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة كما رأينا فى هذه
القصيدة .

(٢) الإحالة

أما الإحالة فهي فساد المعنى وهي ضروب فمنها الإعتساف والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه وشواهد ما كيرة في هذه القصيدة خاصة .

فمن ذلك قوله :

السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس لأنها لا تقام على أرجل وإنما تطرح على الأرض كما يعلم شوقي . اللهم إلا إذا ظن أنها أعمدة تلفراف . على أنها لو كانت مما يقف أو ينكس لما كان في المعنى طائل إذ ما غناه قول القائل في رثاء العظماء أن الجدران أو العمدة مثلاً نكست رؤسها لأجله ؟

ومنه قوله :

إن كان للاخلاق ركن قائم (في هذه الدنيا) فانت البقي

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والأداء أجمعه على طريقتيه ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئاً ولما كان على من يؤتى هذه القدرة من المنطق ضمير ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام في كل لغة ولاي قصد إنما يحتاج إليه للدلالة على معنى معين أو وصف يطابق موصوفه فإن لم يكن كذلك فهو وبهران المحموم وهتر المجنون سواء ، والشعر إذا لم يصح أن يقال في إنسان

معلوم أو صح أن يقال في كل إنسان : في السياسي والعالم والاديب والواعظ والصانع ، فهو الهذيان بعينه ، فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل ؟ ان يفهم انه وحده هو الباني لكل ركن للاخلاق في هذه الدنيا ؟ اذن فماذا يقال عن النبي ان قيل هذا عن الزعيم السياسي ؟

وهل لا يصح حينئذ ان يقال هذا القول في قائد الحرب وفي جوابة الافاق وفي خطيب المحافل وفي التاجر السرى والوزير المحنك والمربي المرشد والمخترع الحاذق في كل انسان بل في الناس جميعا بل في مخلوقات الله وكائناته طرا من حى ونابت وجامد ؟ فانه على كل وجه صرفته قول خلا من الصدق والمدلول سواء ارنيت به حجرا أم رثيت به كونفوشيوس الذى دان بذهبه آلاف الملايين منذ ألوف السنين .

ولا جرم فان كونفوشيوس وحده صاحب شريعة في قومه ، وهبه نبيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما كان تاريخ (هذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعيما سياسيا يوقظ هذه الأمة فلو قيل انه موقظ كل نفس بمصر في عصره لما كان هذا حقا اذ كم في مصر من رجل يقظه ما يقظ مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف وكم فيها من اناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا !

فاذا زيد على ذلك انه موقظ كل نفس بمصر في كل عصر فقد صار الكلام لغوا وسفها فاذا لم يكتف بهذا وقيل عنه انه موقظ كل الناس من جميع الأمم في جميع العصور فالامر شر من اللغو واقبح من السفه - هذا وما تجاوزنا دائرته من النهضة السياسية فما ظنك اذا خرج القائل من هذه الدائرة الى دائرة الاصلاح الاخلاقى فزعم ان ليس للاخلاق ركن قام في هذه الدنيا الا وهو من بناء رجل ولد في اواخر القرن التاسع عشر ، وانها من بنائه قبل مولده وحيث لم تخطر له قدم ولم يسمع لاسمه صدى ؟

اذن يكون بكم المعجماوات خيرا من شعر الادميين كما قلنا في
فصل مضى .

ومن الاحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك في الثرى
هل فيه آمال لنا وامانى

لو سأل : هل في قلبك المدفون في الثرى آمال لنا وامانى
لاغتفرت له هذه الثرثرة على قلة محصلها وتفاهة مغزاها . اما الذى
يسأل ان يفتش فلا يصح ان يسأل هل في قلبك آمال وامانى الا في
معرض التبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولا يمشى : يا هذا
الذى يمشى هل انت حى ؟

ولقد قال حكيم :

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى
فكل من يفرض فيه أنه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، به
كبار النفوس وبعيدى الهم ومنها :
فلو ان رسل الله قد جئنا

ماتوا على دين ولا ايمان

المصواب في اظهار فضل الشجاعة ان يقال انها لازمة في اصغر
المطالب واقرب الفايات كما يقال في اظهار فضل المال ان الانسان
لا يقدر على ان يشتري ابرة بغيره ولا يقال في الدلالة على شدة
لزومه وبيان الحاجة اليه انه لا يقدر على شراء مدينة بدونه .

ولو قال شاعرنا ان احقر الناس خليف ان لا يكسب قوته القفار
بغير الشجاعة لكان لقوله معنى ، اما الاستشهاد على قدرها
واستجاشة الناس لها بانها ضرورية لمن كان رسولا ففى وسع الناس
قاطبة ان يقتنوا بما دون الرسالة فلا يحتاجون الى الشجاعة . اما
ان قيل ان الشاعر يعنى ان الرسل الذين تمدهم قوة الله وتويدهم

روح الله لا بد أن يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو أفرغ منه وهل اذا سمعت ايها القارئ رجلا يخبرك أن المصارع المؤيد بالمنة ومثانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان قويا اكننت تظنه يخبرك بشيء يستحق أن ينظم في بيت شعر ؟ فهذا الذي يخبرنا به شوقي ان صح انه يعنى ما افترضناه ومن احالاته :
فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضييق لمؤثر السلوان

والذى يقوله الناس - وشوقي منهم اذا شاء - ان قضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وان سعة الرحب تأزم بالطامع المتدفع ، لبعد آماذ همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون ان القانع السالى تنفس له سم الخياط ويرحب به جحر الضب !!

فاما القول بأن المطامع تفسح الدنيا والبلوان يحرجها فسراى لا يخطر الا على فكر كفكر شوقي المقلوب .
 ومن هذه الاحالات هذه الفهاة :

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها

نعمى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف اما الصبر على نعمها فعاذا هو ! ولكن ويحنا فقد نسينا أن المصائب والخيرات سيان فلا غرابة في ان يصبر الانسان على النعمة وأن تيطره المحنة . هكذا يقول شوقي وما اصدقه فاننا لا نرى منحة هى اشبه بالمحنة من هذا الشعر الذى انعم الله به عليه . والله فى خلقه شئون .

ويقول :

يزجون نعيشك فى السناء وفى السنى

فكانهما فى نعيشك القمران

وزعيمنا الفقيء كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثانى فى ذلك النعش ؟!

ولا يقال ان صاحبنا اراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين لان السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع منير فلو إنه قال « كأنما في نعشك القمر » أو « كأنما في نعشك الشمس » لما نقص في الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمري كيف يكون النعش في السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى في النعش ؟ ؟ وما هذا الرثاء الذى لا يتم الا بالقضاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟ ؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الأفلاك . فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بأنه كالشمس والقمر وبين الطفل الذى يمدح كل ما يعرفه بأنه كالسكر فالدرسة سكر والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . كذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمر ومعشوقهم شمس وقمر وأولادهم شمس وقمر ولا اختلاف بين امرىء وامرىء ولا بين حالة وحالة فى جميع هذه الأوصاف . ويقول عافاه الله :

وانا الذى أرثى الشمس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران
أى والله ظاهر . لكن الشمس والاقمار والنجوم التى تباع الحزمة منها بخمس مليمات وفى هذه نظر . ويقول :

يا صب مصر ويا شهيد غرامها
هنا ثرى مصر فنم بأمان
وتقول انما يرثى بهذا البيت غريب جاهد فى سبيل مصر وهو بعيد عنها فاذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء ان نتعلل بأنه سينام فى ثراها . ومن السخف ان يقال لرجل مات فى وطنه : أحبت بلدك فنم فى ثراه اذا كان لا يدور بخلد أحد أنه سيدفن فى غيره . ومن مبالغاته التى تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو أن بالهرمين من عزماته **بعض المضاء تحرك الهرمان**

ولعله أراد المقابلة بين الشباب في البيت المتقدم والهرمين في هذا البيت ونحن ننعى على هذه المبالغة دائما أنها لا تدل على شيء فهب أنه قال :

فلو أن بالقطين من عزماته بعض المضاء تحرك القطبان
أو قال :

فلو أن بالشطين من عزماته
بعض المضاء تحرك الشيطان

الى آخر المثنيات التي تسكن ولا تتحرك . ثم هب أنه قال البيت في رثاء مصطفى أو رثاء باستور أو في رثاء ابن زريق أو مشهور كائنا من كان فماذا يختلف من المعنى ؟ ومتى كانت الأوصاف لا تتغير موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟ ويقول :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
قبر أبر على عظامك حان

مصر أيها القارئ - ولا تخطيء فتحسبها القاهرة المزية فانها مصر بريفها وصعيدها - مصر كلها ما هي الا قبر واحد . فلهذا شاعرنا يرى رجلا احيا نهضة بلاده فيجعلها قبرا ، ولاى ضرورة وليدل على ماذا ؟ لا شيء .

وقد اجتازنا بهذه الابيات ، لا لأنها كل ما في القصيدة من شواهد الاحالة واعوجاج الطبع ، بل لأنها ذات طعم وان كان ردينا مجوجا وما سواها تافه لا طعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة أن القصيدة بجملة بنت الاحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فاتها اكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان .

(٢) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المؤلف من القوالب اللفظية والمعاني وأيسره على المقلد الاقتباس المفيد والسرقة وأعز أبيات هذه المرتاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فأرفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر نان

مقتضب من بيت المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته
ما فاته وفصول العيش اشغال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كعبيهم
أذ ينصرون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبى الحسن الأنبارى فوق تشويهه وذاك حين يقول فى رثاء الوزير أبى طاهر الذى صلبه عضد الدولة :

كانك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام للصلاة

وتقول شوهه لأن الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به وإنما يفعل ذلك اللاعبون فى المعارض المتنقلة.

وقوله .

او كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الاسماع والاجفان

ماخوذ من بيت ابن النبيه في فصيدته التي لم تبق صحيمة لم
تستشهد بمظلمها :

الناس للموت كخييل الطراد
فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو :

دفنت في التراب ولو انصفوا ما كنت الا في صميم الفؤاد

على ان المعنى مرذول بلغ من ابتذاله وسخفه ان تنظمه «عوالم»
الافراح في اغانيها وحسب الشاعر ان لا يكون ابلغ ولا ارفع من
القائلات « احطك في عيني يا سيدى واتكحل عليك » وانه ليقول
كما قلن :

ولو ان لي علم ما في غد خباتك في مقتلتي من حذر

وقوله :

او كان للذكر الحكيم بقية لم تات بعد رثيت في القرآن

منظور فيه الى بيت الممرى :

ولو تقدم في عصر مضى نزلت
في وصفه معجزات الاى والسور

وهذا البيت :

او صيغ من غرد الفضائل والعلا
كفن لبست احاسن الاكفان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسك ربا حنوطه
ولكنه ذاك الشئ المخلف

فما اضاف شوقي الى هذه المعاني سوى انه جعل الاكفان تصاغ
وانه تحذلق فقال :

فلو ان اوطانا تصـور هيكلـا
دفنوك بين جوانح الاوطان

يريد جسدا . كانه يحسب ان الاوطان ان لم تصور جسدا لم
يدفن الفيد النابه فيها !!

وربما سرق شوقي ما لا يستحق ان يسرق فهذه شطرته :

لما نعت الى الحجاز مشى الانسى
ليست هي شطرة الشريف في احدى همزياته :
لما نعاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة « ان المنية غاية الانسان » هي من قول
الشريف ايضا « ان المنية غاية الابداد » وكان القافية صدته عن
انتهاج الشطرة كلها فعاد اليها في رثاء فريد اذ قال :

من دنى او نأى فان المنيا غاية القرب او قصارى البعاد
فاتم الغنيمة في قصيدتين . وسنعود الى بيان سرقاته في فصل
على حدة .

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعمهم بالأعراض دون الجواهر
وهو العيب الرابع الذى اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة
الدالة على انماط التقليد ومذاهبه . بيد ان الفرق بينهما كالفرق

بين الخطأ واللعب والسخف والعبث ولكل منهما سبب يمت به الى الآخر اذا تشابها في الصدور عن طبع اعوج وعقل فارغ . وقد يسهل التفطن الى الاحالة ولكن الفطن الى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة كما يصر على الإطغال ادراك رزاة الرجل انظر ايها القارئ الى هذا البيت :

دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان

فانه بيت الفصيد في راي عشاق شوقي فعلى اى معنى تراه يشتمل ؟ معناه ان السنة او مائة السنة التى قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل اذا قال قائل ان اليوم اربع وعشرين ساعة والساعة ستون دقيقة يكون في عرف قراء شوقي قد اتى بالحكمة الرائعة ؟ ولكنهم يقولون لك انه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هى البراعة التى تعجبنا وبها هذان الى واجب الضن بالحياة - وهنا يبدو للنظر في قصر المسافة التى يذهبون اليها فى اعجابهم وان بلاغتهم الزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . والا فلو قورن بين الساعة والقلب ايام كان يقاس الوقت بالساعات المائية او الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الانسان سر الحياة ؟

أبهذه العوارض يقدر الاحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الذى ينظم فى الحياة الانسانية على علاقة سطحية باختراع طارئ ؟؟ ولقد قلنا فى نقدنا لثناء فريد « ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها مربيها واعجميها » ونعيد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . وبقيننا ان أحدهم لو سمع

فأصحا يعظه في موقف جد - وأى موقف جد أجد من رثاء
 النابئين؟؟ - فيناديه يا أخى صن وقتك لأن قلبك ينبض كما تنبض
 الساعة لأغرب في الضحك ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك في
 عقله ، ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعرا يطرب له ويكبر قائله ،
 وما ذاك إلا لحسابه أن الهزل جائر في الشعر فكاهة وحكمة ، ولو
 علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقه أن يضحك منه
 ويلهو به .

وهكذا البيت أخواه هذان

لغوى في علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
 ما احمر من خجل ولا من ريبة لكنما يبكي بدمع قان

والعلم جوهر وعرض فاما الجواهر فهو ما يرمز اليه من مجد
 الامة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية .
 واما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة وليس لها قيمة فيما ترفع
 الاعلام لاجله . فشوقي يولع بهذا العرض اذا هو نظم في العلم ولا
 يعنيه ذلك الجواهر . ولا ريب انه ما كان يذكر لف نعش المرثى
 بالراية المصرية لو لم تكن حمراء كي يكون لونها دمعاً ودمعها دماً
 منزوفاً . وليست هذه هفوة او فلتة بدرت منه هنا بل هي دأبه
 كلما وصف علماً ، فقد قال في وصف الهلال الاحمر :

كان ما احمر منه حول غرته دم البراءة ذكى شيب عثمانا
 كان ما ابيض في اثناء حمرة نور الشهيد الذى قدمنا ظمنا
 كانه شفق تسمو العيون له قد قلد الافق ياقوتا ومرجانا
 كانه من دم العشاق مختضب يشر حيث بدا وجدا واشجانا
 كانه من جمال رائع وهدى خبود يوسف لماعف ولهانا
 كانه وردة حمراء زاهية في الخلد قد فتحت في كفر صوانا

فهو يمثل راية الامة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالياقوت

والمرجان في لون الشفق . حتى الدم اذا ذكره يكون خضابا لشبهه
او دم عشاق . فيا للطافة الشعرية !! وليته سلم بعد ذلك من
عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدودا من حيث خلق الله له خدين
ولم يجعل للراية غرة ولا غرة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس
اذ هو قد وصف هلالا ابيض في اثناء حمرة والهلال الاحمر على
عكس ذلك كما يدل اسمه عليه لو انه تنبه اليه - ومع هذا فاني
لا قسم ان صاحبنا رص هذه (الكائنات) في آيياته الستة ويخيل اليه
انه لو تقدم به الزمن الى عهد عمر بن الخطاب لقال اشعركم من يقول
كان وكان لا من يقول من ومن ..

ومن الغباء العجيب ان يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة
على نعش بطل من ابطال الوطنية فيسرع بنفى الخجل والريبة عن
احمرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى ان يظن بها الناس
الظنون وهي بريئة عفة !! اذ ما الذي يخطر على باله الخجل والريبة
في هذا المقام وهو يرثي الرجل الذي يخاطبه قائلا

ان كان للأخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فانت الباني

ولكنها الغباوة لا تعلم اذا بدأت أين تنتهي بصاحبها !! وليت شعر
شوقي اذا كانت رايثنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول؟؟
اكان لا يرى للنعش بها اي معنى لانها لا تبكي بدمع احمر ؟؟

تلك آية شوقي ومعجزته : آية السيمياء . معجزة الشعوذة .

كومة الرمل كما قلنا في اول المقال . ولقد اتم فيها امتساخ الطباع
بمخالفة الواقع فجاءت معرضا مختارا من الأغلاط ، وسملا مرقعا
من النشوز والاختباط . وما كان يسعه ان يخرج نفسه خلقا
آخر فيأني بالمستوى من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم في
اغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسعه ان يعلم ان السكة
الحجازية لم تصل الى مكة فلا يقول

لما نعت الى الحجاز مشى الاسى في الزائرين ودوع الحرمان السكة الكبرى حيال ربهما منكوسة الاعلام والقضببان

والحرمان في الحجاز هما الحرم المدني والحرم المكي وكل قارئ
للصحف ولا سيما لدن وفاة مصطفى كامل يعلم ان ليس حيال
ربي مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هي حتى الساعة

وكان في مقدوره ان يعلم ان الحسين لم يشيع في موكب حاشد
كما شيع مصطفى فلا يقول في وصف نعشه

وكانه نعش الحسين بكر بلا يختال بين بكى وبين حنان
وقد رايناه يغير على قصائد الشريف امتراه لم يفقه رائيته التي
يقول منها في مصرع الحسين .

وخر للموت لا كف تقلبه الا بوطيء من الجرد المحاضر
كان بيض المواضى وهي تنهبه نار تحكم في جسم من النور
تهابه الوحش ان تدنو لمصرعه وقد اقام ثلاثا غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة . ومن العامة من يستظهر
خبره ويعلم كيف انه قاتل حتى اثنى بالجراح وانه - لا حيا الله
قاتله - مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة واكثر من أربعين ضربة ثم
ديس بالخيول ورض جسده واحتز رأسه وطوفه ابن زياد الكوفة .
ثم ارسله الى يزيد في خبر فاجع لا حاجة الى تفصيله . وانى لمن
يموت هذه الميتة ان تحتشد له الجنائز يطاف بنعشه في المواكب !!
ولا نقول يختال بين البكاء والحنان فما من احد ينسب الاختيال
الى النعوش الا من كان نعشا مختالا كهذا الذى لا يميز بين تشييع
قتيل الى قبره وزف عروس الى خلوها . فان زعم انه يقصد
موكب عاشوراء الذى يحتفل به الشيعة كل سنة تذكارا لوفاة
الحسين فالخطأ اعظم واقبح لاننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب

فما رايناهم يحملون نعشا وانما يقتادون جوادا مسرجا ملجما لانهم
أزكن من شوقى وادرى بما ينبغى ان يذكر به يوم الحسين اذ كانوا
يحتفلون بمصره فى ميدان حرب لا يمدقنه فى الثرى .

كان يسعه ان لا يقول ذلك كما كان يسعه ان يسكت ولكنه الهم
ان يستقصى عاهات الشعر ما يتداركه منها ، اذا شاء ، وما لا
يتداركه . وان يجتهد فى ذلك كأنه يكافأ على مجهوده وهو فى الحقيقة
يكافأ المكافأة التى يستحقها فانه بهذه العاهات ينفق شعره بين
الجهلة والسذج ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع
عنه الاستحسان الا أن يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة أو يقال
منه انه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون .

* * *

ولا ندع هذه القصيدة التى ملأها شوقى بما يسميه حكمة
وبما يتسامى به الى مضاهاة المتنبى ومضاربة المعرى قبل ان
تكشف عن غشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين
يؤمل صلاحهم واقتناعهم وان نروى تلك البديهييات واشباه
البديهييات التى يتصنع شوقى بها الحكمة والرشد لعله يريحنا من
هبنقيات وبيع نفسه من عبء لا طاقة له به .

فالحكمة فى الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهى من أصعب
الشعر مراما وأبعده مرتقى لا أساس قيادها لغير طائفة من الناس
توحى اليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجرى بها السنتهم آيات
تنفج ببلاغة الثبوة وصدق التنزيل ويلقى أحدهم بالكلمة العائرة
من عفو خاطره ومعين وجدانه فكانما هى فصل الخطاب ومفرق
الشبهات تستوعب فى أحرف معدودات ما لا تزيد الاسفار الضافية
الا شرحا وامتدادا وتسمعا فتشع فى ذهنك ضياءها وتترك كبف
يتقابل العمق والبساطة ويألف القدم والجدة : قدم الحقيقة كائنت
ما تحولها الحياة المتقلبة وحدة النظر الثاقب والنفس الحية التى
تطبع كل مرئى بطابعها .

فهى تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ
الأزل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق . كبيتى المتنبي اللذين
يعدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

**تصفو الحياة لجاهل او غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولن يغالط في الحائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع**

فالجاهل من لا يعى والغافل من يعى لو شاء ولكنه لا ينتبه
والغالط نفسه واع منتبه يحجب يديه ما تبصره عيناه . وهؤلاء
هم الذين يفتنون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذى قسمه
من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد فلن يجد انسانا غير هؤلاء
تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا
نقص بقدرة من المعنى .

وتارة يلمع الى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكأن
قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن
المبد :

**لعمرك ان الموت ما اخطا الفتى لكما طول (١) المرخى وثنياه باليد
وهذا أجمل ما يقال فى بحبوحة العمر المرتنهة بالأجل
وطورا تصل طرفى الفكرة فتمرضها عليك من جانبيها كما قال
البحترى**

**متى اذت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه
وطورا تصدع برأى يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز
تغرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبي الماثور
الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فاعمله لا يظلم
أو كقول أبى فراس**

ما كل ما فوق البسيطة كافيا فاذا قنعت فكل شيء كافى

(١) الطول : حيل يطول للدابة لترعى والثنى الطرف .

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس

بغاث الطير أكثرها فراخا وإم الصقر مقلات نزور

فليس الشأن كذلك في كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيرا في كل نسج ونتاج .

ويقرب الشاعر الحكيم المعنى العويص والفكرة البعيدة فيوضحها - وضوح المألوفات كما صنع الأفوه الأودى بهذا البيت القل

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهالهم سادوا

فقد حفيت الأفلام بحثا وتنقيا في علوم الاجتماع وكلت القرائح تدبرا وانعاما في شئون الأمم وراقبت الدول على سنن شتى من الأنظمة والدساتير فما خرجت كلها بزبدة أو جزو لا أصدق ولا أتم من هذه الحكمة التي اهتدى إليها هذا البدوي الناشئ في عصور الجهالة وانك لا تزن أمة بميزان هذا البيت الا كنت على ثقة من السداد والاصابة .

هذه هي الحكمة الصادقة وهي كما ترى غير قاصرة على إيراد الحقيقة المسلم بها وانما هي الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصبية واللفطنة النافذة واللسان البليغ ، وبغير ذلك لا تكون الحكمة الا ملكا مشاعا للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الآخر حكمة مبتدلة أو مغشوشة معتملة . أشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ولا لسابق على ناقل ، اذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطئ النهر الغزير ،

وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى
والهجير ، واحقق ممر يحمر البثر على شاطئ النهر من يروح
ويقدو ينظم من اشباه البديهيات تلك النصائح الفاشية التم حفلت
بها كتب التمرينات الابتدائية . « كالعلم نافع والصدق منج والبركة
في البكور واحترم الاستاذ تتقدم وفي العجلة الندامة وفي التثاني
السلامة » وما الى هذه النصائح والامثال والحكم - ينظمها ليشتهر
بالحكمة وليصيح من فوقها .

لي دولة الشعر دون العصر واثلة

مفاخرى حكى فيها وامشالى !!

فهل يدري القارىء من صاحب الحكم والامثال المخور ؟؟ انه
هو شوقى ، ثم هل يدري ما حكمه وامثاله التى استتبت له بها
دولة الشعر ؟؟ هذه هى :

عليكم لواء العلم فالفوز تحته وليس اذا الاعلام خانت بخذل
والعلم في فضله او في معاخره ركن الممالك صدر الدولة الخالي
يقبل للعلم عند العارفين به ماتقدر النفس من حب واجلال

بالعلم (تمتلك) الدنيا ونضرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال

فليقارن القارىء بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الاول
نحو « العلم نور . من عاشر العلماء وقر . تعلم العلم لحفظ الدرس .
حلى النساء الذهب وحلى الرجال الادب » وليسأل نفسه ماذا زاد
عليها ملك الشعر المتفرد بدولته واى ميسم يبدو عليها من مياسم
نفسه وماذا من وحى الشاعرية والهيام البصيرة ونهية العبقرية
واصالتها ؟؟ اليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟؟

ومن اركان ملكه اعزه الله هذه الجمل المركة من ست كلمات
فاكثر فليبتلق الوحى اناس حجبوا عن صفاء الشاعرية
وليسفيدوا :

المحسنون هم البيا ب وسائر الناس النفاية
ان القضااء اذا رمى ذلك القواعد من ثير
والمال لا تجنى ثمار رؤسه حتى يصيب من الرؤس مدبرا
الجد غاية كل لاه لاعب عند المنية يجزع المفرح

سر في الهواء ولد بناصية السهى

الموت لا يخفى عليه سبيل

فلم ار غير حكم الله حكما ولم ارد دون باب الله بابا
وان البر ابقى في حياة وابقى بعد صاحبه وثابا
ومن يعنل بحب الله شيئا كحب المال ضل هوى وخبا
وما الرزق محتجب حرفة اذ العظ لم يهجر المحترف
ما الدين الا تراث الناس قبلكم كل امرئ لأبيه تابع تال
ومن العقول جداول وجلامد ومن النفوس حرائر واماء

أرم النصيحة غير هائب وقمها

ليس الشجاع الراى مثل جبانه

ولعمري لقد كانوا يقصون علينا ونحن اطفال حكاية تاجر الزجاج
مع الحمال وهى الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان
يضحكننا أن نسمع الباجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمال
واحدة فى اثر واحدة فيفهمه متندا انه : « ان آل لك حد الراكب
مثل الماشى اول له بتفشر . وان آل لك حد الفنى مثل الفقير اول
له بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى اجرة « شيلة » حتى
راى شوقى ان يسمعنا نظما « ان آل لك حد الشجاع مثل الجبان
اول له بتفشر » فآمنا يخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه
من الاجرة الغالية !!

وهل علم أحد ان المسافرين اذا آب فقد آب قبل ان يقول
شوقى :

وكل مسافر سيؤب يوما اذا رزق السلامة والايابا
ام علموا الحق حتى اخبرهم به مستغربا جهلهم سائلا اياهم :
ليس الحق ان العيش فان وان الحي غايته المات
ليس كذلك ام ماذا بالله ؟؟

ام حكم احد الاحلام الا حين علموا منه ان :
الحق ابلج كالصباح لناظر لو ان قوما حكموا الاحلاما

ومن امثلة حكمته المفشوشة المعتملة قوله

لئن تمشى البلى تحت التراب به

لا يؤكل الليث الا وهو اشلاء

والبيت من قصيدة في شكسبير . ومعناه ان جثة شكسبير
استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها - اى
انه لم يمزقها حتى مزقها ولم يبلها حتى ابلاها ولم يتلفها حتى
اتلفها ولم تفتت هي حتى تفتت . مهابة واجلالا ... وانه لما
اكلها اكلها ولكن بعد تقسيمها كما ان الاسد لا يؤكل الا عضوا
عضوا ..

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين والارض والسماء،
المحسن الى واحد من رعاياه بالتقدير والثناء ، المنعم عليهم بالذكر
والايام .. تصفيق متواصل .. لابل ضحك تتجاوب به الاصداء،
على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعر
وامير الشعراء .

فياهذا . ان جثة شكسبير ليست بموضع العظمة منه لانها
في الحياة جسد تفوقه في الحسن والقوة احساد كثيرة . وهي في
الموت رفات يبلى كما تبلى بقايا الاحياء من اكملها الى ادناها . ولو

جاء أن يعظم أحد بأن يقال أن الموت يتهيب جسده لكان ذلك اليق
بإبطال الحروب إذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على
أقرانهم . ولكننا مع هذا نرى المتنبي يقول في أبي شجاع .

من لا تشابهه الأحياء في شيم

أمسى تشابهه الأموات في الرمم

وهو من نعلم محضا الحروب وابن الكريهة وحلس الخيل كانوا
يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحي
فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟؟ وعلى أنه لا
معنى لأن يقال أن البلى تهيب أن يتمشى فيه إلا بعد تقسيمه لأن
تمشيه فيه هو التقسيم . ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل
إلا هو واشلاء لأن الشأن كذلك في كل مأكول فالغار أيضا لا يؤكل
إلا وهو اشلاء والدجاجة لا تؤكل إلا وهي اشلاء بل حتى الأرز لا
يؤكل إلا وهو اشلاء ممضوغة وما من شيء يزدرد لقمة واحدة فيما
نظن ويظن جميع الأكلين . وصاحبنا برئى شاعرا فيخلط هذا
الخلط فعافاه الله أي نوع من أنواع العظمة يفقهه أن كان لا يفقه
العظمة التي يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان ؟؟ وأين من تقدير
شكسبير من يرثيه رثاء إذا صح فيه فانه يصح في كل حيوان ؟؟

على أن لشوقي دون هذا الحضيض حضيضا ينزل بالحكمة
إليه فيلحقها بوظيفة كتاب الاعلانات ويكلف الشعر أن يقول أ

احذر التخمّة أن كنت فهم أن عزرائيل في خلق نهم
واتق البرد فكهم خلق قتل من توقاه اتقى نصف العمل
اتخذ سكناك في طلق الجواء بين شمس ونبات وهواء
خيمة في اليد خير من قصور تبخل الشمس عليها بالمرور

وتقول : ان كانت هذه حكمة وشعرا فلم لا يكون كاتب « احترس من النشالين » و « ان اردت النزول اطلب من الكمسارى توقيف القطر » نابغة يستملى الحكمة ويستمدح وحى الشعر ويرتجل البلاغة ؟؟

وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا أبياتا يجوز ان يكون معناها مطروقا شائعا ويجوز ان يكون من جوامع الكلم ليتبين كيف يتناولها الشاعر المطبوع فينفث فيها حياته وكيف تعن للنظام المقلد كما هي ونختارها من معان ورد مثلها في شعر المنبى الذى يقتفى شوقي أثره ويطمع أن يجاريه . وهذا بعضها :

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والاقدام قتال

الف هذا الهواء اوقع في الأنف

فس ان الحمام مر المذاق

من اطلق التماس شيء غلابا

واغتصابا لم يلتزمه سؤالا

من يهن سهل الهوان عليه

ما لجرح بميت ايلام

لا يعجب مضيما حسن بزته

وهل تروق دفيننا جودة الكفن

فهذه أبيات من رائع الحكمة تحمل في طواياها حجة الطبع الدامغة وآية الفطنة البالغة ، وهى قد كان يمكن ان تقع لشوقي من ذخيرة الاحاديث المشاعة فتسمعها منه كمعادته في نقل هذه الاحاديث منظومة فاذا هى مثلا : (الجود مفقرة والاقدام مقتلة . الحمام مر المذاق . القوى مفتصب . من هان سهل عليه الهوان . لا يزين الدليل حسن البزة) وهكذا عهدنا الامثال العامة فاذا شئت ان تزن الحكمتين بميزان الصحين فكلاهما صحيح ، ولكن ليست

وصفوة القول أن الحكمة المبذلة أيسر ما يتعاطاه النظامون لأنها صوغ متاع مشاع على حين أنهم لا يمسون الحكمة العالية أساسا ولن يقاربوها ولا اختلاسا . لأنهم لا يملكون جوهرها ولا يقدرونه لو وقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته وسهولته . وربما خدع بعض الناس في بعض أقوالهم فخالوها من قبيل الحكمة العالية لما يبههم من رنين صياغتها وبريق طلاها فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين أن أرقى ما يرتقون إليه أن يأتوا بكلمة مقبولة في شئون المعيشة وفرق بعيد وبون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية ، فاما الأولى فبنت المران والمكابدة تقرا آلافا من أمثالها في كتب اللياقة ونصائح « أياك وحذار عليك » وأما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة وثمرة التفوق في شمائلها المقدسة وضمائرها السرمدية . كتابها صفحات الاكوان وسريرة الانسان ومن ينابيعها تتفجر العقائد والاديان وتنبثق روح الرشد والبيان . الأولى لون من ألوان البيئة المكتسبة والثانية نفس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان .

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة لمن لا شك في غلبة الصناعة عليه
كالحريرى على ما اذكر حين يقول :

كل من الوجود يطلب صيدا غير ان الشبائك مختلفات
ولكنها فلتات لا يقاس عليها

ولقد ذاع لشوقى بيت سوقى فظن انه سقط على كنز وطار
به كانه لا يصدق انه له او كانه يخشى ان ينازعه لفرحته به وهو

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان تولت مضوا فى اثرها قدما

ثم كرر ايضا فى قوله

وليس بعاصر بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا

ثم كرهه اذ يقول

ملك على الاخلاق كان بناؤه من نحت اولكم ومن صوانه

وكرره فى نشيده وفى قصائد اخرى وكل هذا الفرح بمعنى
بعد من تحصيل الحاصل ان كان له مدلول ، فليس يقول لك
ما يستحق ان تصفى اليه من يخبرك بأن الاخلاق الصالحة ملاك
صلاح الاجتماع وقوام الامم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون
عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف فانما يقرر
البديهييات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية او حقائق
التمرينات الاولى .

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس
فى بائيته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب بقى تمشى ولها ذنب
لا تغضب يوما ان شتمت والناس اذا شتموا غضبوا

الى ان يقول

النفاقة لا منقار لها والوزة ليس لها قتب

وكثيرا في قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه ان يقال فيها انها سخيصة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الطرف ولكنه يطمع بالسخف البحت ان يستأثر بدولة الحكم والأمثال .

وقلنا ان كان للبيت مدلول ، لان البيت في الحقيقة لا مدلول له . فلو انك حذفك كلمة الأخلاق وجعلت مكانها اصفارا لما نقص من معناه شيء . لان هذه الكلمة لا تؤدي معنى محدودا في الكهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصدق والسخاء وحسن المعاشرة والوداعة والحلم ، وقد يفهم منها تقيض ذلك من الطباع كالغناد والمراعاة والدهاء والبطش وهو ما يفهم أحيانا من كلام الأفرنج حين يصفون رجلا بأنه من ذوى الطباع البرزة والحيوية المتينة فأى المعنيين يقصد شوقي ؟؟ ان من الأمم ذوات الحيوية الغالبة من لا تعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقة فضلا وهى مع ذلك من تأصل مادة الحياة فيها واحتوائها على بواعث القوة والسيادة بحيث لا يخشى عليها الانقراض العاجل أو البوار . والتاريخ غاص بسير هذه الأمم . وان منها لما تحمد سجايه ثم لا تلفيه من القوة على نضيب وافر فليقل لنا شوقي ما غناه بيته ان كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو اسرائيل .

ولقد أضحكنا مرة أحد الثائرة الذين يتلقفون من الكلام ما لا يفقهون فقال لنا ان البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس الناس وان في ذبوع بيت شوقي لدليلا على قيمته . فقلت له يا صاح : أشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردى ؟

لا تقل اصلى وفصلى ابدا اما اصل الفتى ماقد حصل

فان كان لهذا الشعر قيمته فهنيئا لنا !! اننا امة من ثلاثة مشر مليون حكيم بل هنيئا للانسانية فان الشمس لا تطلع الا على الحكماء من اينائها .

رثاء الأميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الاستار ، وبقبر النبي المختار . أقسم
بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسيني
والضريح الزينبي ومقام السيد البدوي ومزار كل شريف من ولد
فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما أن دفنوا
بالأمس الأنيعة .

بهذا القسم ، أو على الأصح ، بهذه الأقسام استهل شوقي
رثاء للأميرة المحسنة فاطمة بنت اسماعيل . وهي منشور قوله :

حلفت بالمسطرة والروضة المعطرة
ومجلس الزهراء في الـ حظائر المنورة
مراقد السلالة الطـ بيبة المطهرة
ما انزلوا الى الثرى بالأمس الأنيعة

ولولا أن الأمر أظهر من أن يحتاج الى قسم لأقسمت له بحس
قبلة ومقام ، وبكل نبي وامام ، أنه لنسيج وحده في فكاهة الرثاء
أن كان للرثاء فكاهة ، ولم لعمر الله لا يكون له فكاهة وقد أرانا
شوقي في مرثيته أجمع فنا مبتدعا منه وطفق يبكي من يبكيهم كافة
ينمط يلتبس عليك فيه الجدل بالزح ، ويقترن العبك بالدح -
أفرايت أحدا قط يقسم لك على صدقه في تعداد منافب مرثيه
كانه يخشى التكذيب أو يتقى أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة

غير شوقى ؟؟ واذا اطرده هذا فى جميع شعره فلم لا نحسن الظن وننتلقاه منه على أنه مذهب جديد فى بابہ ونأخذ له اسما فى أصول البلاغة مصطلحا عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا او اسما آخر مقبولا لديه ان لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من مرثيه وانها لكثيرة طويلة بحمد الله الذى لا يحمد على المكروه سواء ؟؟

وسنرى الذين يمارون فى اختراع شوقى لهذا الباب واطراده فى قصائده جميعا وفى أبيات القصيدة الواحدة ، نقول سنريهم أنها ليست بفلتة نظم أو هفوة خاطر ولكنها أصول يرعاها وأسوم يعيها ولا ينساها . والا فلو كان حذرہ من التكذيب واتقاؤه تهمة المداجاة فلتة سبقت بها قريحته فى مطلع القصيدة فماذا كان يدعوه الى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو د والوفود المحضرد

وكل دمع كذب ولوعة مزورة

الا ان الامر بين لمن ينصفون ... فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم فاشعرنا الريب واتهم نفسه فى ثنائہ ، ثم عاد فذكر الدمع الكذب واللوعة المزورة فأرانا حكمة ذلك القسم وأنه لم يبدر منه جهلا بفنون الرثاء وانما تفننا واختراعا لم يسبق اليه ، ونرجو أن لا يبارى فيه ... فأما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا الرثاء القديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للأشياء بغير اسمائها . فلا بد اذن من أن ينتقى له اسم مبتكر طريف وعليه هو تحرير قواعده وضبط أصوله ورسم نماذجہ .

عجيب والله أمر هذا الرجل !! ما رأينا خطأ أشبه بالتمعم ولا توقرا اقرب الى المجانة من هذائه فى رثائه . وما التبس الهزل بالاجلال قط التباسهما فى تأبينه وبكائه . فما كان اغناؤه عن الحلف ومبرات الاميرة أشهر من ان يرتاب فيها او يتنازع عليها ؟؟ وهبها

لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر إذا لم يصدقها الناس بالإيمان أو البراهين في قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز هذا وساله : ما باله يفترض أن الناس تبكى على الأميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟؟ أضروري هذا ليقول بعده أن الدموع الكاذبة لا تفنى عنها وأنه .

لا ينفع الميت سوى سالحة المدخرة

أقول ذلك لأن الدموع إذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت الميت وأغنته عن السالحة المدخرة ؟؟ فإذا كان التباكي كالبكاء في هذا المعنى فلم هذا السخف الذي يفيض من المبكية والباكين وليس له من جدوى ؟؟

ونحن ما كنا لنوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا أننا نريد أن يلمس ضعف تمييز شوقي عن التفرقة بين حالات النفوس ضعفا لا تنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا أننا سمعنا يبتين منها يرددان في معرض الاستحسان فأحببنا أن نمسح الرغو عن محضهما لمن عساه أن يكون على رأس المستحسنين لهما . فالببيت الأول وهو .

فاطم من يولد يموت الهد جسر المقبرة .

أعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من السابقين إليه أبا المتاهية حيث يقول :

وعبروا الدنيا إلى غيرها فانما الدنيا لهم مصير

وفصله المعرى وقسمه فقال :

حياة كجسر بين موتين : أول وثان، وفقد المرء أن يعبر الجسر

وهو أوضح وأوجز في قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة النية واعلم أنما الشيب للمنية جسر

فالذي صنعه شوقي هو أنه سرقه وشوّهه كعادته لأنه جعل المرء يخرج من المهد إلى المقبرة وما نطن الناس يموتون كلهم أطفالا !!

والصحيح ان المهد اول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية بقيته .

والبيت الثانى او هو بيت القصيد فى رايهم قوله :

يلفظها سكرة كانت بفيه سكرة

يعنى الروح . وقد كان يخطر لنا ان يمتدح كل بيت فى القصيدة خلا هذا البيت ، وهذا من الغرائب فى تضاد الاذواق وانتكاسها . فقد دل به شوقى على سقم تعبيره واراد ان يقول ان المرء يحب الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لانه كنى عن صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان اليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو انه قال :

يلفظها سكرة كانت بفيه حنظلة

لكان هذا الصواب فى تمثيل تأفف الانسان من الحياة حتى اذا ادركه الموت حلا مذاقها لديه وكره ان يلفظها كأنها « السكرة » !! ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشى على يديه او ينام على بطنه فيرى العالم معكوسا ...

ومن ترهات شوقى التى يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه القصيدة :

وكل نفس فى غد ميتة فمئسرة

فالنفس لا تموت فى غد فحسب ولقد ماتت نفوس لا تحصى امس واول من امس وقبل ذلك بالآلاف السنين وهى تموت اليوم بل الساعة . ولكن الرجل اشتهى ان يقول : ان كل نفس تموت مئسرة غدا - فخانه الاداء وخذلتة العبارة وهى لو استقامت له لما جاء بظائل .

واما سائر ابيات القصيدة فلا فرق بين اثباتها وانتقادها وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقى فلا نضرب فى الهواء ولا نطرح فى البوتقة الحصاء ، والشعر اذا تساوى فيه اللقد والاغضاء فخير منه الصحائف البيضاء .

ما هذا يا أبا عمرو؟؟

مصطفى أفندي الرافعي رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه رأسه مراكب يترىث دونها الحصفاء أحيانا وكثيرا ما يخطئون السداد بتريثهم وطول اناتهم . وطالما نفعه التطوح وأبلغه كل أربه أوجله اذ يدعى الدعاوى العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجوز دعاواه وينق الحافه عند من ليس يكرههم أن يخدعوا به . بيد أن الاعتساف اذا كان رائده الخرق في الرأي وشيك أن يقع صاحبه في الزلل احدى المرافضيع عليه ما لو علم انه مضيعه لفدأم بكل ما في دماغه من هوس وما في لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعي فحق علينا أن نفهمه خطر مركبه وأن قدميه أسلس مقادا من رأسه لعنه يبدل المطية ويصلح الشكيمة .

أصدرنا الجزء الأول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شوقي وهو بعض ما ننظر اليه من شعره وجماع ما ينظر اليه الرافعي لانه لا لبالي اذا سقط التشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقي جوهره وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة !! ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من عنده مصمية ولا مدمية وسرق بل انتهب منا الكنانة والبخيرة فلم يدع في طبعة نشيده الثانية وجهها من أوجه النقد التي أتينا بها الا انتزعه وسدده وفاته أن القذيفة لا يرمى بها مرتين ولا تصيب من منزعين .

ولقد أحسن بنا الظن وأساءه فلم يستغن عنا ولم يقدر فينا التنبيه
الى صنيعة ، وما له عافاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا
ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غميرنا ولا نرضى اجترأهم على
غير سياجنا ؟ ؟

وليته اعتدل أو ترفق فيعذر بعض الاعذار ولكنه اذن لنفسه
بغاية الافراط ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط .
فبعض هذا يا أبا درويش أو يا أبا السامى كما تكنى نفسك أو يا أبا
عمرو كما تقول للجنة الاغانى فى خطابك فان صاحب المساكين حري
أن لا يفتصب بالسيف كما صنعت وفى رائعة النهار .

قلنا فى نقد نشيد شوقى ان النشيد القومى يجب « ان لا يكون
وعظايل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب » .
فرجع صاحبنا أبو عمرو الى نشيده فحور منه ما استطاع
بضمير المتكلم فقال :

الى الصلا فى كل جيل وزمن فلن يموت مجلدنا كلا ولن
وقد كان هذا البيت فى الطبعة الاولى :

الى الصلا فى كل عصر وزمن فلن يموت مجد مصر لا ولن
ولما ان طوى هذا الضمير ووثق من مواراته ونفض عن يديه
ترابه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئا وصاح يؤنب شوقى
لقوله :

على الاخلاق خطو الملك وابنوا الخ .. الخ .

ورسالة : « وممن هذا الوعظ يا ترى . أمن الشعب لنفسه
أم من شوقى للشعب ؟ ص ٧٩ » كما سالنا من قبل : « فمن الذى
يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة لا » وكما اخذنا عليه
« أنه لهتوطا مطية الفلسفة والمواعظ » .

وانكرنا من نشيد شوقى أنه « قد حسب اننا سنظل طوال
الدهر كلابنا فى يومنا هذا فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به فى جميع

المصور أن يتها مكاننا وأن لا نبرح نشرق في التمهيد وناخذ في الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشبيد الأركان » .

فجاء أبو عمر البيهقي فقال : « وإذا قيل اليوم لبنى مصر هيا مهدوا للملك ومكانكم تهيا فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعد ألف سنة وما شاء الله وإلى آخر الدنيا ولا يزالون الدهر كله في تمهيد ؟ » ص ٧٨ .

وعقبنا على قول شوقي عن الشمس : « ألم تك تاج أو لكم مليا ؟ » بأن الشمس « لم تكن تاج القراعة وإنما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها » .

فعلمت البيهقي أيضا « أن زعم شوقي أن هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وإنما كانوا ينتسبون إليها ويعبدونها » ص ٧٩ .

فله ما أعلم البيهقي بالتاريخ إذا لقنته !!

وعبنا على شوقي تخفيف الهمزات وأنه صير « سئلت » سيلت و « تهيا » تهيا و « شينا » شيا .

فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول : « وهذا التسهيل في همزة سيلت لم يفهمه إلا القليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الأساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت » ص ٨٢ .

فمنذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الأساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة !!

ورويتنا أن بعض اللحنين والظرفاء يستقبحون تلحين تطاول مهدم عزاء و « فخرا » الخ الخ .

لأن التنوين لابد أن يسقط في الإنشاد فيخلفه المد وترجع الصوت . قالوا « وإذا انتهى المنشد مثلا إلى كلمة (فخرا) ومد

بها صومه ورجه فأي رائحة تفوح منها ؟ » ثم قلنا : « ولسنا نحن ممن يبالي بهذا النوع من النقد ولكننا نعلم المنشد » .

فروى هو كذلك عن الأدباء والمحدثين أنهم : « تنادوا بقوله فخرا وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا أنها مما لا يدوقه أحد الشعراء من طعم كلامه » . ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هذا السخف فلندعه .

أترأه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟؟

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهرم الذي صحب الزمانا ومن حديثاته أخذ الامانا
ونحن بنو السنا العالي نمانا أوائل علموا الامم الرقيسا

لان الناظم ساقها مساقا ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس » .

فاستضعفها صdana الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجبا : « كيف غفل شوقي عن أن يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣ .

فأسأله بالله ثم أسأله كيف غفل أيها الرامد اليقظان !!

ونقلنا عن بعض أعضاء اللجنة أنه لما تليت هذه المقطوعة :

على الأخلاق خطوا الملك وابسوا

فليس وراءها للعسز ركن

اليس لكم بوادي النيل عدن

... الخ الخ

قال : « إن البيت الثاني متبتر وسأل : ما العلاقة بين النصيح ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادي النيل بعدن والكثير » .

فترك هو القائل والراوى وزوى وجهه عنهما وصاح وحده ؟
« كلام مقطوع عما قبله » . وسال من لدنه سؤاله : « فاذا كان لهم
بوادى النيل عدن وكوترها فماذا ؟ » ص ٨٠ .

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفينى الصليب على الهلال
ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد شديد فاننا ان سمينا الوطن ملة
ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟ » .

فوضع اصابعه فى اذنيه - او لم يضمهما - واصر وولى واستكبر
استكبارا وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فاذا : « زعم انه يريد بملة ذى الجلال الدين مطلقا قلنا له فان
اقوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وكل
هذه الاديان ملة ذى الجلال » ص ٨٤ .

هذا كله ولا اشارة الى الديوان ولا كلمة يستشف منها ان احدا
تقدمه الى هذا النقد بل لعله قصد الى ادعائه عنوة فكتب على الرسالة
انها طبعت فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونسى لقفلة ذهنه انه ضمنها فى
صفحة ٦٧ كتابا للاستاذ منصور افندى عوض مؤرخا فى ١١
ديسمبر ...

فهذا الخلق البغيض ونظائره من جرمومته هى التى تملأ
نفوسنا تقزاز وعزوا من ادب الجيل الماضى وادبائه ، ومن صناعة
من ينتسبون اليها ولكن ليس لها ما لاحقر الصناعات من حرم يرهى
ودستور يفاء اليه ووازع يوقف عند حده - ارجحهم منها سهما

اجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وارفعهم فيها اسما
اطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعا تقيضان
من شعور بالعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها
ولا حقوق لذويها ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ،
وما على المحترف بها بأس من السماجة والاقتراء ؛ وانما البأس
كل البأس عليه من المروءة والحياء .

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم في جلسة
لجنة الاغاني فقيدناها لهم وأيينا لأنفسنا أن ندخلها في كلامنا مع
أنها أهون وجوه النقد التي أخذناها على النشيد ومع أننا تحدثنا
بها لأصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل أن
نسمع حوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لا يستحي أن يسم نفسه
على غلاف رسالته «بنابته كتاب العربية وزهرة شعرائها» يعتمد الى
نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن اتنامه فينتحله
جملة ولا يفلت منه كبيرة ولا صغيرة حتى بسميتنا مشاهير المذهب
العتيق بالأصنام (١) ثم لا يرى أن عليه بعد ذلك أن يوحى بفرد كلمة الية
ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الأناشيد ، كأننا حين كتبنا نقدنا
في مصر كان هو يكتب رسالته في أقاصي الصين أو أطراف السويد
ولا ندري وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون
منها والهزيمة ؟

ولما أراد أن يعتمد على نفسه في وجه من أوجه النقد لم نذكره
وظن أنه فاتنا أبلغ في الغند والسخف فنمى على تشيد شوقى خلوه

(١) قال في صفحة ٦٩ « جهد أكبرهم ان يقرر أصنام الطبقة التي هم دونها
ليكونوا بذلك أصناما للطبقة التي هي دونهم » وقال في صفحة ٧٠ « وكم من صنم
قد تغفل باطله ونزعت شياطينه وانقرت رذائله فلما ذهبت تصالح منه التوى
ملكك »

من لفظتي الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذا الأعمه أمة
تتغنى بانها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه في مفاخرها
بما ليس يتحقق لها كيان بدونه .

إيه يا خفافيش الأدب . أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم
الضئيلة ، لا هودة بعد اليوم . السوط في اليد وجلودكم لئل هذا
السوط خلقت . وسنفرغ لكم أيها الثقلان فأكثروا من مساوئكم
فانكم بهذه المساوئء تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها
حسناتكم ان كانت لكم حسنة يحسها الأدب والحقيقة .

عباس محمود العقاد

صنم الألاعيب (٢)

كتبنا كلمة أولى عن شكرى فى الجزء السابق ارضت اثنى :
اهل المذهب العتيق البالى الذين كانوا يابون الا ان يعدوا شكرى من
دعاة الجديد والا ان يحسبوه علينا وياخذونا بشعره ولكن هؤلاء
سخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم ان يرونا نमित الاذى عن المذهب
الجديد ونفى عنه وخامة شكرى . وليس يعنينا امرهم ولا نحن
نبالى سخطهم من رضاهم فانهم فى رايانا جثث محنطة .

وثانى فريقى الراضين المتعلمون من اهل البصر والاتزان
وسلامة الدوق والشبان السائرون على الدرب وهم من نرجوهم
لصلاح الادب ونفض غبار الماضى عنه . ولهم لا لسواهم كلامنا .

اما فئة الساخطين فهؤلفة ممن يحملون على اكتافهم رءوسا
وكانما حملوا معدة اخرى لا عقلا يفكر وذهنا ينظر ويتدبر . وهم
يطالبوننا ان لا نشيم الخير من احد وان لا يكون لنا رجاء فى مخلوق
مخافة ان يخيب هذا الامل فنكون قد تناقضنا ووقعنا فى محذور
وجئنا امرا يلزمنا عاره ويبقى اسمه !! فياويحنا لقد اسخطنا والله
هذه المعدات الضافية وهجنا ثعالها اللاحسة بنقدنا شكرى الذى
« وضع اهم احجار النهضة وضحى فى سبيلها شخصيته وشهرته »
كما يقولون . ولكن لا ضمير علينا من غضبهم ولا داعى لهذا الغضب
فانا لا ننكر ان شكرى « ضحى بشخصيته » !

مسكين هذا الصنم !! لا يعرف لكمه ماذا يقول . ويتطوع
المشفوق عليه للدفاع عنه فبجىء دفاعهم اقتل له من نقدنا .
وينقمون منا انا جعلناه صنم الالاعيب وهم يسخرون منه
وبتضاحكون به . وماذا يجدى فؤدهم عنه ؟ لقد كنا وكان شكرى
نخلص له النصيح ونمحضه الراى والسداد ونشجعه ونغتبط بما
نراه من تعلمله من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة
فى التحرر ونجرى مع الامل فيه فهل كان علينا ان نظل العمر طامعين
فى غير مطمع ؟ ثم اعملناه على شىء من اليأس منه ثم تخشنا له وعنفنا
عليه فى الزجر فلم يئن لا الاغضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادرا
راكبا راسه حتى احفاه ؟

ولقد كنا فى كل ما كتبناه عنه فى اول عهده بقرض الشعر لا نفعل
الى جانب التشجيع ان ننبه الى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء
الثانى من ديوانه « انه يطا مفاخر الصنعة بقدميه » وانه « لا يتعهد
كلامه بهذيب او تنقيح ولا يبالي اى ثوب البس معانيه » وعللنا
يومئذ جموحه هذا بأنه « نتيجة طبيعية لتماذى الشعراء فى المنهج
القديم ولجاعتهم فى احتذاء الال العتيق » اى انه نتيجة رد فعل
فهو تطرح وتطبيق للعقل يقابلهما من الجهة الاخرى غطيط المقلدين
فى كهف الماضى وكان ذلك فى ١٩١٣ فهل يرى أحد ان راى اليوم
لا يتفق مع راى الامس ان صح ان هناك راين ؟ كلا لقد ادينا
الواجب له وللادب قديما ولكننا اليوم تؤدى حق الادب وحده .

ومن المضحكات ان رسالة وردتنا بدون توقيع يقول فيها كاتبها
« انك تنهم شكرى بالجنون وانت مثله والجنون فى شعرك كثير »
وما رمينا أحدا بالجنون بل قلنا ان ذهن شكرى متجه ابدا الى هذا
الخطر مكتظ به وان لهذا الاتجاه دلالة . على أن كونى مجنونا
لا يشفع لشكرى ولا لسواه فى شىء جل او دق وما اهتمنا لشكرى
ولا تقولنا عليه ولكنه هو الذى بتهم نفسه بالجنون . ألم يقل فى
كتابه « الاعترافات صفحة ٧١ » :

« انى أسىء الظن بكل شىء سواء الحميد والذميم فلا غرو اذا رأيت فى الضياء ظلاما ورأيت فى سواده ما يخلقه سوء الظن من الأوهام التى هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل . ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه فى أذنه فاذا تلفت الى يمينه وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليمنى واذا تلفت الى يساره وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليسرى ومن العجيب أن هذه الشياطين التى يخلقها سوء الظن لا تخفى قبحها لتخدعنا بل تظهر قبحها فى حركات وجهها وجسمها (!!) هذه الشياطين هى الخواطر التى يهيجها سوء الظن تمرح فى ظلامه كما يمرح الطوطى فى الظلام وتودى بالمرء الى الجنون (نعم قد عانيت من أجلا الجنون وجرعت كأسه المرة وبلقت أعماقه ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائج . ذلك الجنون الذى لا ينسى المرء الفكر والأمانى) اه .

فهل رأيك أيها القارئ أننا فيما كتبناه عن شكرى أكثر اعتدالا منه هو نفسه واننا اذا كنا نبالغ فى شىء ففى الحذر والاحتياط وفى التحرر من التعبير بأكثر من المراد وفى فرط توخي القصد وتحرينا للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا ان شكرى بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وأوردنا شاهدا على ذلك وفى النبذة التى اقتطفناها من «الاعترافات» شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ « ومن العجيب ان هذه الشياطين لا تخفى قبحها بل تظهر قبحها فى حركات وجهها وجسمها) وليس هذا من المحاز فى شىء فان صاحبنا شكرى لم يدع سبيلا الى هذا الغرض والتأويل فقد سد بابا باعلان دهشته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضا فى اعترافاته ص ١٠ .

« ويسمع المحب انقاما وألحانا (غريبة) لا يسمعها غيره وليس لها وجود ويرى اشكالا هندسية بديعة لا تسمع عنها فى كتب

الهندسة ويرى أزهارا خيالية لا يعرفها الباحثون في علم النبات «
فهو يسمع ويرى ما يعلم أن لا وجود له وفي هذا تأييد لقوله في
وصف جنونه « ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون
من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائج » .

وشكرى قديم العهد بالشیاطين والعفاريت قال في ص ٢١ من
الاعترافات :

« لقد كنت في صفري كثر الاعتقاد بالخرافات وكنت التمس
العجائز من النساء أسمع قصصهن الخرافية (حتى صارت) هذه
الفصص تملأ كل ناحية من نواحي عقلي (وحتى صارت) عالما كبيرا
ملؤه السحر والعفاريت وحتى صارت العفاريت حولي تحل حيث
أكون . وأذكر أني رأيت مرة عفريتاً على سطح منزلنا وكان أسود
الجسم شخصه مثل شخص الإنسان ولكن جسمه يعلوه الشعور
الكثيف » .

وليس ذلك في صغره فقط بل هو الآن بعد أن كبر وبلغ أشده
كما كان في حداته .

انظر قوله في ص ٢٥ من الاعترافات :

« وفي بعض الاحيان أخاف خوفاً شديداً أن يظهر لي إبليس .
فاتلفت كي أثق أنه لم يظهر بعد وفي بعض الاحيان أعتقد وجود
العفاريت والجن كما كنت أعتقد في أيام صفري لقد سمعت البارحة
القطط تعوي وتصرخ مثل عواء (المجانين) أو عواء الأرواح الحائرة
المعذبة (التي تتخذ الليل جلباباً ثم تفرغ في ذلك العواء ما تقاسيه
من العذاب فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس إذا حاولت الكلام
لم أشك في أنها عفاريت من الجن وأصابني رعدة شديدة .

وتأمل تدقيقه في وصف هذه الأرواح الحائرة التي يذكرها وكيف أنه لا يجد تمثيلاً لمواء الفطط - لا عوائها - إلا بمواء المغاريت وكذلك كل صوت في سمعه قال في ص ٢٦ :

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت في ولدها » وهو بعد يلتذ المربعات كمنظر النار تأكل الدور قال في ص ٣٤ « اذكر أنى رايت مرة حريقاً هائلاً في جنح من الليل فبهيج في قلبى عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج أعماقها وجعلت أشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناي حتى كدت أرى بريقها وصارت النار تأكل المنازل فتهدم وتنهال وتتصاعد السنة النار والدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى أوجها نور يزيدنا شحوباً وكنت أحس لفح تلك النار في خيالى وذهنى .. هذه هى المناظر التى (التذها) ومن الغريب أنى يخيل لى أن هذه المناظر وما تبعثه من الاحساس تعين المرء على أن يفهم الحياة ومعرفة مبرها » .

ثم تصور شكرى واقعاً له ما يصفه هنا في اعترافاته ص ٧٢ :

« ما رايت اثنين يتساران الا ظننت انهما يذكرانى بسوء .. أو احدا ينظر الى الا حسبته يحدث نفسه عنى بسوء وانى لأسى ظننى الآن بمن سيقرا هذا الكتاب وما رايت احدا ينظر فى ثيابى الا حسبته رآى فيها شيئاً خفى عنى وما رايت احدا ينظر فى وجهى الا حسبته رآى فيه شيئاً قدراً وما رايت احدا عابسا الا حسبته يعبس من أجلى بغضا أو حقداً وما رايت احدا باسمى الا حسبته يسخر منى ويهزأ بى وما سمعت ضحكاً لم أعرف سببه الا خجلت بخجلاً شديداً وحسبتنى غرضاً لذلك الضحك (ومن أجل ذلك صيرت أعبس فى وجه كل من يبسم فى وجهى من الناس الا من عرفت

سبب ابتسامه وأحيانا أعرف سبب ابتسامه فلا يمنعنى ذلك من
إساءة الظن به)

ولست خواطر الجنون وسوء الظن والعقاريات كل ما يملأ
ذهن شكرى فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام .

قال فى ص ٧٥ من الاعترافات :

« الفزع من التهم ضرب من سوء الظن والجبن لقد رأيت فى
الحلم البلرحة أنى اتهمت (كذبا) باتيان جريمة ولم يكن عندى ما
أدفع به التهمة فصرت أصبح أمام القاضى وأقول أنا برىء والقاضى
يهز راسه ولا يصدقنى والشاهد الكاذب يبتسم ابتساما خبيثا ثم
رأيت بعد ذلك أنى أساق للسجن والاعدام انه لحلم يفزع .. انى
لاذكر أنى اتهمت (زورا وبهتانا) فى أيام صغرى بسرقة علبه من
الحلوى ولا ازال أذكر ما نالنى من الفزع ان تكون الحياة كلها تهم
(كذا) باطلة .. على انه من (جنون) اليأس والفزع والجبن توقع
ما لم يحدث من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع » .

ولا ينبغي ان نفوت القارىء ملاحظة تنبيهه دائما الى أن هذه
التهم مزورة كاذبة حتى التى حلم بها فان لهذا الخوف منه ان
يصدق القارىء ما يرويه معنى ولا شك .

وقال فى ص ٨٥ : « يحسب كثير ممن لم يتعود التفكير ان الناس
منقسمون بفطرتهم الى قسمين فهم اما مجرمون واما أبرياء وهذا نظر
فاسد فان فى نفس القديس جرثومة الاجرام .. اى الناس لم تحطرو
ببالة خواطر الاجرام ولم يفزع مما يتحرك فى نفسه من حشرات
الشر .. لقد مرت بى ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التى تدفع
المراء الى الشر فان الجريمة مثل السراب اللامع والحياة كالصحراء
القاتلة الحرارة والمراء فيها كالصحراء الظلمات يليح له سراب الشر
(بضائئه) فيريد ان يروى ظمأه وينقع غلته أنا اليوم برىء ولكن
ما بدرينى ربما كنت فى غد مجرما ربما تحركت عوامل الشر التى فى

نفسى .. وكنت أشفق على المجرمين واملا لهم قلبى رحمة فانه لا يحزننى فى الحياة مثل رؤية آثار التعاسة التى يجلبها الاجرام للمجرمين لقد رايت فى الحلم مرة انى اتيت جريمة القتل ثم وقفت امام جثة المقتول وقد احسست دوارا وصار العرق يتصبب على جسمى وكنت احس جريه كانه دبب الحشرات وقد جمد الدم فى عروقى واسودت الدنيا فى عينى وكلما اردت ان اتنفس احسست شيئا يسد مجرى النفس وكنت احس صوتا كانه صوت اعصابى تتقطع فيحكى صوت تقطع اوتار العود وكنت يخيل لى كان بدا من جلد قد وضعت على ظهري هذه الاحلام التى تمكن الاديب ان يعدم شخصه فى اشخاص غيره وان يلج الى ارواح الناس وعواطفهم وان يرحم المجرم كما يرحم التبعس » .

وقال فى ص ٦٢ : « ليس من سبب لبغض المنتحرين وانتقاصهم الاحب الاحياء انفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة ان انتحر فرارا من سلطان القضاء فاخذت سكينى وادنيته من صدرى ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغي ان اضرب نفسى الضربة القاضية فلم تهن على نفسى فقلت الليلة الآتية افعل ذلك ولما اتت تلك الليلة ارجأت الانتحار الى ليلة اخرى حتى افكر فى طرق الانتحار واختار منها واحدة » .

وقد فكر فى الانتحار مرة اخرى لسبب هذا خبره قال فى ص ٩٦ :

« انى لا ازال اذكر ذلك اليوم النحس الذى لطمنى فيه شقيقى لم يكن يدري مبلغ اساءته فرفعت يدي لألطمه ولكن الجبن واخاه الحزم همسا فى اذنى قائلين انك اذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو اقوى منك فلا تصببه الا ببعض ما يصيبك فخير لك ان تتحمل اللطمة الاولى وان تنجو سليما فوقع يدي الى جانبى واحسست ان روحى قد سلبت اجل شئ فيها فنظرت الى ما بين قدمي لارى ما سقط منها من العزة والانفة والشجاعة ثم احسست كان عظامى قد احترقت

ولم يبق الا رمادها وخارت قواى وعرثنى حيرة وشككت فى الحياة
فجعلت اعدو من الفيظ وقد اسودت الدنيا فى عيني وجعلت أنظر
الى المارين وهم ينظرون الى فارميههم بلحاظ المقت والكره لاني كنت
احسبهم يسخرون بي ويعرفون ما حدث لى ويفهمون سر روى
التي أهينت ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير وهممت أن
أرمى نفسى فيه ولكنى هزأت بنفسى تلك النفس التي نغر من اللطام
الى الحمام ثم ذهبت الى البيت .. وخطر لى (أن أتأبط سكيننا
أو مسدسا وأن أنتقم من ذلك الشقى فأقتله) ولكن الحزم والجبن
وهما سمرأى ونصيحاى الإحا لى بالقضاء والمحاكم فجعلت أقرض
أسنانى من الفيظ حتى تكسر بعضها وكنت فى حالة من حالات
(الجنون) اهـ

على أنه تشجع مرة بعد هذه وأراد أن يظهر أنفته وعزة نفسه
فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفككة بعقب هذه المرات .
قال فى ص ٩٨ :

« فلما احتدم الجدل بيننا وخفت أن يبدأ اللطام بدأته به فان
المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت أريد أن يخر
مغشيا عليه مثها ولكنى خفت أن أفقا عينه أو أن أصيب أحد أعضائه
بتلف دائم أو أن تكون ضربتى هى القاضية فتعود على بالطامة
وبالعقاب الشديد .. كل هذه الخواطر جالت فى ذهنى عندما
سددت يدى لالطمة ومن أجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديدا
فمد الى يده باللطام ولكن يخيّل لى أنه لم يخش ما خشيت من
العقاب وانما استنتجت ذلك من وقع لطماته فانصرفت بأنفهمشم
وعين سوداء حمراء زرقاء كأنها قوس قزح » .

وقلنا عن شكرى انه أبكم فكاننا اخترعنا شيئا وحسب البعض
ممن يظنوننا تلقى القول على عواهنه ولا نبألى أين وقع من الحقيقة
اننا نستطيع بلساننا عليه مبالغة فى إيجامه وتنقصه والزراية عليه

ولهم العذر اذ ما اذراهم انه هو القاتل في ص ٣٩ من الاعترافات :

« انى في خلوتى بنفسى اعد الكلام البليغ والحجج الراجعة والكلمات البليغة واتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس تكون كل كلمة من كلماتى فيها آية من آيات البلاغة ولكنى اذا لقيت هؤلاء وحادثتهم لم أجد فى كلامى هذه الآيات البينات . ثم اذا خلوت بنفسى بعد ذلك اقول كان ينبغى أن اقول لهم كذا كذا فينطلق لسانى بالكلام الفصيح البليغ . ولكن اى مزية فى أن يكون المرء (عيبا) فى المجالس فصيحاً فى الخلوات ؟ وهذا سبب من اسباب انفرادى ووحدتى . ويرى الناس (سكوتى) ووحدتى فيحسبون حياتى هادئة مطمئة » .

وليس الامر عنده من قبيل صمت الفكر أو المحزون أو قليل الكلام فى العادة بل هو داء قديم مستعص . قال فى صفحة ٤٧ من الاعترافات :

« لقد كنت فى صغرى كثير الحياء وكنت انظر الى جرة اترابى من الفلمان (وحسن لهجتهم) وأعجب بها وأتمنى أن اكون مثلهم . اذكر أن أبى زار بى صديقا له من الفرنسيين وكنت صغير السن وكان لصاحب البيت ابن فى عمرى فجاء الفلام وصافحنا وحيانا (بفصاحة وطلاقة ورشاقة) أعجب بها المحاضرون وصاروا ينظرون الى ويضحكون » .

ولا تظن بنا الآن حاجة الى استقصاء « الجنون » فى شعره بعد اقراره به وتقريره انه جرّع كأسه المرة وانه وصل الى اعماقه وأنه يحس بجنونه ويعرف اسبابه ونتائجه لا كأولئك البيمارستانيين البلهاء الجهلاء الذين لا يعرفون أنهم مجانين

وفي اناس كما ابون حتى على انفسهم ولكننا عاشرنا شكرى
اعواما طويلة رحالطناه وبلوناه ولا نراه بالغ في شيء مما وصف به
نفسه بل لعله آثر السكوت عن اشياء يعرفها عنه كثير من خلطائه
وملابسيه . ولا يمكن أن يقال في الرد علينا وفي تبرئة شكرى مما
قرف به نفسه أن « الاعترافات » صاحبها رجل آجر اسمه م . ن
وان شكرى ليس الا ناشرا لها فان هذه الاعترافات ليست الا طائفة
من المقالات لا يربطها شيء الا ضمح المتكلم وقد نشر شكرى اكثرها في
« الجريدة » بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على أنها له ثم عاد فجعلها
في كتاب طبعه في ١٩١٦ ويرى قارئ الاعترافات أبيات شعر كثيرة
واردة في اثنتائها وفي الهامش أنها من شعر المؤلف وصاحب الأبيات
هو شكرى وربما ذكر اسم القصيدة التي هي منها وقد يعين الجزء
من ديوانه الذي وردت فيه .

ومما هو خليق أن يبعث القارئ على الركون الى هذه
الاعترافات وتصديقها. انه يجد مصداقها في شعره فكما أنه قال في
الاعترافات في نفس القديس جرثومة الاجرام كذلك قال في شعره
« فقد أغرم الانسان بالشر والأذى » وقال :

كل نفس فيها الخير والشر

دواع طويلة الاغفاء

وقال معترفا انا اليوم برى ولكنى ربما كنت في غد مجرما ومنا
شعره

وبما شبب بين جنبك للشر

ضرام ما ان له من فناء

انت في اليوم واسع الجاه غص ال

خير لندن الرخاء وطب الرجاء

خالص الكف من دماء قتيل

اييفى الطبع لم يشب برياء

ربما كنت في غدا أشعث الطبع
ح لئيم الخصمال جم الشقاء
خاضب الكف من دماء عدو -
طائر الضغن ثائر الشحاء
وقلنا ان ذهنه مشغول بخواطر الاجرام والقتل واورنا بدا من
اعترافاته وفي شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة « الزوجة
الفادرة » وهى قصة امرأة ارادت أن تسمه نفسها هو :
وهى قد افرغت لى السم فى كوبى
وقامت تمر قمر بعييد
ثم غافلتها وافرغت كوبى
فسوق ماء بكوبها منزور
ثم نلنا من الطعام بلاغا
وشربنا برة من التصريد
ثم جاء اليوم الجديد فنامت
زوجى الرود نومة القبور
فصل السم فمعه فى حشاها
ودهاها من الردى بقيود
ومنها قصيدة عنوانها « أم اسبرطية قتلت ابنها » وهو فيها
يبرر هذه الجناية لانه فر من الحرب قال وقد نسي انه هو أيضا
جنان حتى فى موطن « اللطام »
ايها الخائن الجبان خشيت الـ
موت والموت حادث مقسور
ان اما تغزى لها قتلت فى
قتلك العار لم يصبها معيب

ومنها قصيدة اسمها « قبله الزوجة الخائنة »
قد قبلتني قبلت مرة
كانها من حمة المقرب
تنهش جياها لم يكن نهزة
لشاحذ الاثياب والمظب
لولا وميض الزأى يقتلاني
يعيلني من سفه المفضب (!)
جلتتها بالسيف امحو به ال
نوب بذهب رائع معجب
وتأمل في هذه الأبيات همس « الجبن وأخيه الحزم » وكيف أنه
يصف الجريمة بأنها رائعة معجبة . ومنها قصيدة العقاب بالقتل
وفيها يعذر المجرم
اطيلوا حياة الجارمين فانها
حياة اذا سسد المطامع عاقر
لقد اخلفتهم بلغة العيش برها
زمانا وحابات الحياة غوادن
فبئس حياة المرء والفقر عاكف
عليه واسباب الحياة جرائر
هنا لك انى للفقير لعاذل
وانى له مما يعانيه عاذر
كان كل من يجرم يكون باعته الفقر والخصاصة : وله عدا ذلك
أبيات كثيرة في تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبه
فلو كنت بين الناس ربا معز
ونادوك انى فانك النفس جارم

لألفيت غفرانا لديك ورحمة
فما يغفر الزلات إلا الاعظم
وقوله :

رحمت أسعى كمصحر بان عنه ال
صحب فردا ذا وحشة واطراح
او كذى الجرم حين طال به السجن
يفضل الطريق عند السراح
وقوله :

كان هموم المرء ذنب مراوغ
فيا يؤس مقتول ويا يؤس من نجا
وفى واعترافاته انه يحلم بأنه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك في
شعره

يرى الناس ان النوم ام رحيمة
ولكن نوم الجارمين عقاب
يسل على العظم أسياف نقمة
فاحلام نومي كالجحيم عذاب
كم هد من عزم صليب عذابها
وشيب وراد الذنوب فشابوا
ومنها :

وغيرني عما عهدت جرأثرى
فليس الى الحال القديم اياي
فلا تحسبن الشر يمحي بتوبة
وان غفر الجرم العظيم متاب
يواقع كل الناس بالفكر شرهم
وقد عابني اني جرؤت وهابوا

وكم حدثت بالشرذا الخير نفسه

وذاك حديث ما عليه عقاب

وقد شبه في اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضياء
وكذلك فعل في هذه القصيدة

ظمنا فخلنا الشر في العيش منهلا

لكن ورد الجارمين سرايب

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبه وبرر ذلك ولم يرفيه مائما

وان بقلبي من جفائك (جنة)

فان رام يوما قتلكم ما تائما

فاسقى جنوني من دمائك جرعة

وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

الى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تفصيله وما بقي من شك في
أن الرجل مسح الطبيعة

هذا هو شكرى قد رسمنا لكم صورته بقلمه وهذه هي صفاته
وميله ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلها شاذ غير مألوف في الفطر
السليمة والطباع القويمة كما نعرفها ويعرفها الناس فهل بالغنا
الهم لا! وهل يخرج ممن كانت هذه حالة شعر سليم؟ كيف والطبع
أعوج والذهن مقلوب والعين تنظر الى الحياة من منظران معكوس يريها
الاشياء على غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها؟

((ابراهيم عبد القادر المازني))

الجزء الأول

[illegible]

الجزء الثاني

[illegible]

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٩٦/١٤١٣٢

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

مَصَابِيحُ مُؤَسَّسَةِ دَارِ الشَّعْبِ - لِلصِّحَاخَةِ وَالطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ
١٢ شَارِعُ قُصْرِ الْعَرَمِ - الْقَاهِرَةِ ١٠١ - ٣٥٥١٨١٠ - ٣٥٥١٨١٨ - ٣٥٤٣٨٠٠